إيبارشية المنيا وأبو قرقاص
للأقباط الأرثوذكس

دراما الصليب

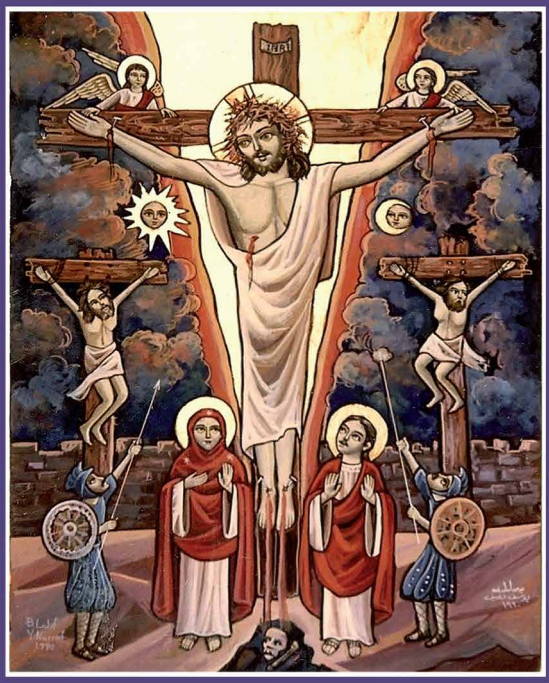

الجزءُ السادِس

مكاريوس
الأسقف العام

إيبارشية المنيا وأبوقرقاص
للأقباط الأرثوذكس

دراما الصلب

الجزء السادس

إعداد :
مكاريوس
الأسقف العام

اســـم الكتـــاب: **دراما الصلب (الجزء السادس)**

الـــمـــؤلـــف: الأنبا مكاريوس، الأسقف العام.

الـــنـــاشـــر: إيبارشية المنيا وأبو قرقاص للأقباط الأرثوذكس

الـــطـــبـــعـــة: الأولى، مارس ٢٠٢٠م

الـــمـــطـــبـــعـــة: مطابع النوبار – العبور

الـــغـــلاف: القس بولا وليم

صـــورة الغلاف: المتنيح الفنان يوسف نصيف

التنسيق الداخلي: عادل بخيت

الـــعـــنـــاويـــن: مجدي لوندي

رقم الإيـــداع: ٨٠١١ / ٢٠٢٠

قداسة البابا الأنبا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في مصر وسائر بلاد المهجر

مقدمة

هذا هو الجزء السادس من كتاب «دراما الصلب»، والذي يتضمّن مقالات حول الشخصيات التي كانت موجودة حول الصليب، سواء في التآمر على الرب أو القبض عليه ومحاكماته الدينية والمدنية، وساعات الصلب، ثم الدفن والقيامة. كما تناول الكتاب في أجزائه الخمسة السابقة بعض الأماكن ذات الصلة بصليب الرب، وكذلك بعض الأدوات والمواد وغيرها. كما تضمن الكتاب بعض مقالات لاهوتية وروحية وطقسية، متعلّقة بأيام المسيح الأخيرة بالجسد على الأرض، والفداء الثمين الذي قدّمه.

هذا وتُعَدّ أيام البسخة هي الأيام الأكثر إقبالًا من الشعب على الكنائس، حيث يتعامل اللأقباط مع الأحداث باعتبارها حقيقية وحيّة، وليست مجرد تاريخ أو ذكرى، ومن ثَمّ يشاركون وليس كمن يشاهد مسرحية أو يسمع مغنيًا. لقد رأيت أناسًا يبكون أثناء القراءات والألحان، وكثيرات يتشحن بالسواد في هذا الأسبوع، وكثيرين يسلكون بنُسك شديد فيه، وكثيرون يبكّتون أنفسهم طوال الأسبوع شاعرين أن هذه الآلام الجسدية والنفسية إنما كانت استحقاقهم هم وليس المسيح، ومن ثَمّ يسجدون منسحقين طالبين الرحمة والغفران، وواعدين الرب أن يجاهدوا قدر استطاعتهم حتى لا يُحزنوه من جديد، مثلما عاينوه في بستان جيسثماني يعاني ويحزن ويكتئب وينزل عرقه كقطرات دم. كما لاحظت أن هناك راحة قلبية بأن الخلاص يتم، وأن هذه الآلام ستنتهي بالقيامة، وأننا سنقوم معه.

وفي كل عام، وعندما يقترب أسبوع الآلام، يكون لسان حال الأقباط: «لنخرج إليه حاملين عاره...».

أرجو أن يبارك الرب هذه الصفحات لمجد اسمه القدوس، ويعوِّض جميع الذين تعبوا معنا في إعداد هذا الكتاب، بصلوات حضرة صاحب الغبطة والقداسة البابا تواضروس الثاني، ونعمة الرب تشملنا. آمين.

مكاريوس الأسقف العام

الفشلة المدخنة والقصبة المرضوضة

«هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. وَعَلَى اسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ» (مت١٢:١٨-٢١).

وردت هذه الأوصاف عن المسيح المخلص في سفر إشعياء النبي، منسوبة إلى عبد الرب وهو تعبير عن المسيح (خادم-عبد-فتاي) «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ».. ويقتبسها القديس متى هنا، ويرى في السيد المسيح مطابقة للأوصاف المذكورة (٤٢:١-٤).

لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ:

هو الذي تكلم عن عدم الخصام، بل جاء ليصالحنا بدم صليبه، وهو الذي بحث عنه الأنبياء قديمًا كمصالح يضع يديه على كتفينا، وهو الذي نهانا عن الخصام «وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا» (متى٥:٤٠). ويؤكد القديس بولس على ذلك «وَعَبْدُ الرَّبِّ لاَ يَجِبُ أَنْ يُخَاصِمَ، بَلْ يَكُونُ مُتَرَفِّقًا بِالْجَمِيعِ، صَالِحًا لِلتَّعْلِيمِ، صَبُورًا عَلَى الْمَشَقَّاتِ» (٢تيموثاوس ٢:٢٤). والخصام هو الإدانة والحكم على الآخرين وعدم التعامل معهم، ويشير سليمان الحكيم إلى أن «اَلرَّجُلُ الْغَضُوبُ يُهَيِّجُ الْخُصُومَةَ» (أمثال ١٣:١٠،١٥:١٨). والمخاصم يخسر كل أحد، بل ولا يلوم نفسه.. والخصام يمنع من التناول، ويمنع من السماء أيضًا. على

الإنسان أن يكون طويل الروح، ويذكر القديس بولس الخصام كأحد أعمال الجسد (غلاطية ١٨:٥).

والسيد المسيح لم يخاصم بل ذهب إلى الجميع، وضم الأطفال الذين أبعدوهم، وفي المحاكمات كان حملًا وديعًا احتمل في شكر ولم يتذمر ولم يفعل كما فعل اللصّان من تذمُّر وتطاوُل؛ بل شفى، وأطعم، وعلّم، وقبل الظلم والإهانة، «تذلّل أمّا هو فلم يفتح فاه». لا يصيح، بل هو وديع وهادئ، صوته هادئ، وتعبيراته لينة، ونادرًا ما يعلو صوته، وجاء عنه أن صوته كخرير الماء، يشيع البهجة والخير، ونقرأ في سفر الملوك في قصة إيليا النبي:

«فَقَالَ (الرب لإيليا): «اخْرُجْ وَقِفْ عَلَى الْجَبَلِ أَمَامَ الرَّبِّ». وَإِذَا بِالرَّبِّ عَابِرٌ وَرِيحٌ عَظِيمَةٌ وَشَدِيدَةٌ قَدْ شَقَّتِ الْجِبَالَ وَكَسَّرَتِ الصُّخُورَ أَمَامَ الرَّبِّ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الرِّيحِ. وَبَعْدَ الرِّيحِ زَلْزَلَةٌ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي الزَّلْزَلَةِ. وَبَعْدَ الزَّلْزَلَةِ نَارٌ، وَلَمْ يَكُنِ الرَّبُّ فِي النَّارِ. وَبَعْدَ النَّارِ صَوْتٌ مُنْخَفِضٌ خَفِيفٌ. فَلَمَّا سَمِعَ إِيلِيَّا لَفَّ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ وَخَرَجَ وَوَقَفَ فِي بَابِ الْمُغَارَةِ، وَإِذَا بِصَوْتٍ إِلَيْهِ يَقُولُ: «مَا لَكَ هٰهُنَا يَا إِيلِيَّا؟»» (١ملوك ١٩:١١-١٣).

الحقيقة أن الصياح هو علامة ضعف وعدم ثقة، أحيانًا الصوت العالي يزعج ويثير الغضب، والطفل يرتعب من قسوة الكلام قدر ما يخاف من الصوت العالي، ويقول مار إسحق: «مَشيٌ هيّن وصوت ليّن».

وبهاتين الصفتين (عدم الخصام وعدم الصياح) يتحقق في المسيح ما قاله عن نفسه «تَعَلَّمُوا مِنِّي، لأَنِّي وَدِيعٌ وَمُتَوَاضِعُ الْقَلْبِ».

لا يسمع أحد في الشوارع صوته

إذا قيلت هذه العبارة عن إنسان، فيمكن أن يكون معناها أنه لا يعلن عن نفسه، ولا يميل إلى التظاهر وعمل كوكبة أو درع بشري، هذا النوع

من الناس يعملون في هدوء ويمضون إلى الرب في هدوء أيضًا. إنهم مثل الملح ومثل الخميرة، فالملح لا تراه ولكنك موقن أنه موجود، والخميرة لا تراها وهي تعمل ولكنك ترى تأثيرها العظيم، الملح يذوب ولكنه لا يضيع، والخميرة كذلك تذوب ولكنها تحوّل الكل إلى خميرة. أشعر بذلك في بعض الأحيان مع بعض الآباء الكهنة والذين يبدون أنهم بلا مواهب خاصة تميزهم، ولا يُنسَب لهم بالتالي صفة مميّزة، مثلما يُقال عن شخص إن لديه مواهب، أو إنه واعظ أو كاتب، أو جميل الصوت أو صاحب مشاريع.. ومع ذلك فإنه عمليًا يؤثر في الكنيسة إيجابيًا بشكل كبير مثل الملح ومثل الخميرة.. واختفوا خلف الصليب ولم يجدوا ما يفتخرون به في حياتهم سواه «حَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ».

هناك أناس اختاروا الظل والهامش ليحيوا فيه، لا يهمهم أن يعرفهم الناس أو يمتدحوهم، أو يعرفوا شيئًا عن خدمتهم أو عطائهم، ولكن يكفيهم أن يعطوا. لا يطلبون مجد الناس، ولا يرجون المكافأة، ولكنهم يسعدون لذلك، ويصفون الخير بأنه تسديد لجزء من المديونية عليهم للرب، أو أن ما يقدمونه هو جزء من ثمن الحقل وما شابه، يقول القديس بولس: «أَنَا مَا أَنَا» (١كورنثوس ١٥:١٠)، ويقول أحد القديسين: «إن شئتَ أن تجدَ راحةً في هذه الدنيا، قل في كلِّ أمرٍ تعمله: «أَنَا مَا أَنَا»؟»

مثل الذي لا تحس به في جلسة ما وتنتهي الجلسة لتكتشف أنه كان موجودًا وأنه لم يتكلم، ومثل هؤلاء كثير من القديسين عاشوا ورحلوا عن عالمنا ولم يعرفهم أحد، وحتى الذين عايشوهم لم يجدوا فيهم ما يستحق أن يتحدثوا عنه أو يمتدحوهم عليه أو يكتبوا عنه.. وأما هم فرحلوا ولم يقولوا كلمة واحدة. ولعل براري مصر تحوي في باطنها ملايين القديسين الذين لم يكن العالم مستحقًا لهم، ولم يُكتب عنهم شيء، وحسبهم أنهم تمتعوا بالمسيح بعيدًا عن ثرثرة أهل العالم وعن مجده ووسائل راحته. وماذا يعنيهم من

العالم إن كانوا قد وجدوا في الله نفسه كفايتهم؟ وكيف يتركون الينبوع الحي ليحفروا لهم آبارًا مشقَّقة لا تضبط ماءً؟ وفي المقابل هناك كثيرون أضاعوا حياتهم في عمل اسم لهم، «وَقَالُوا: هَلُمَّ نَبْنِ لأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِالسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لأَنْفُسِنَا اسْمًا لِئَلاَّ نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ» (تكوين١١: ٤)، ومثل الذي لا يكتفي بالغنى والشهرة والقوة والعظمة، وإنما يسعى أن يكون الأغنى والأشهر والأعظم والأقوى.

يبدو أيضًا أن الصوت العالي أو الصياح يعكس خواءً داخليًا، مثل الأواني الفارغة التي تحدث رنينًا عظيمًا، بينما لو كانت ممتلئة لصدر عنها طنين رزين؛ وكما يقولون عن بعض الأغنام أنها كثيرة الصياح قليلة العمل والإنتاج (الصوف). سمعت أيضًا أن الشخص إذا كان ضعيف الحجة يلجأ عادة إلى الصراخ والصياح، أما متى كان صاحب حق وصادق فإنه يتكلم بهدوء وثقة، وإذا صاح فهو فقط لا يستحي من أن يعلن للكل أنه خاطئ ونجس ويحتاج إلى صلاة.

ومن أمثال الذين يصيحون أولئك الذين يعلنون كثيرًا عن عمل الخير، فيتحدثون في كل مناسبة عن أعمالهم الخيّرة، ويكتبون عنها ويسجلون أسماءهم على العطايا سواء الستور أو المذابح أو حوامل الأيقونات وغيرها، بعكس الذين يدخرون لأنفسهم أجرًا سمائيًا.

دعوني أتجرّأ وأطلب منكم ألّا يسمع أحد في الشوارع صوتكم، لا الجيران ولا المارّة، ولتكن بيوتكم مغلقة عليكم. لا تتشاجروا، وإذا حدث نقاش فليكن بصوت خفيض، وليغلب العقل الحنجرة، وإذا علا الصوت فلا يجب أن يعرف أحدٌ ذلك. بعض الناس أسرارهم في العمارة كلها وفي الشارع وعند البقال والحلاق والخباز، وحتى إذا تكلموا في التليفون فإن جميع من حولهم يعرفون كل الأسرار بسبب الصوت المرتفع وعدم التحفّظ

في الحوار. لقد عاتب ضيفٌ للقديس أنطونيوس بعض الرفاق الذين كانوا يستقلّون مركبًا معه فقال: «إنهم يتكلمون بكل ما يجري على ألسنتهم».

هناك أشخاص متى تكلموا وددتَ أن يصمتوا، صوتهم عالٍ جدًا ومزعج. ومثلهم الذين يضعون الميكروفون في أفواههم، يجلدون الناس بضجيجهم فيتمنون أن ينتهي سريعًا ما يقوله. ومثلهم الذين يتكلمون في التليفون بشكل مزعج فتضطر إلى إبعاد التليفون عن أذنك.. وهناك أناس متى تكلموا صوتهم عذب كالموسيقى، ورائق كالنهر، وشدو الطيور، بل أن بعض المطربين كان صوته وهو يتكلم يشجي أكثر مما يغني.

إن الصوت الخفيض علامة اتضاع، وقلة الكلام علامة حكمة، ولكن الصمت أخير من كليهما...

قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ

القَصَبَةُ المَرْضُوضَةُ هي التي اعوجّت أو فُدِغت أو شُرِخت، وبالإمكان معالجتها عن طريق ما يشبه الجبيرة، مثلما نفعل مع شروخ العظام والتواء الأرجل، ومع قليل من الراحة والترفُّق تعود الساق إلى وضعها، رغم أن البعض يتقاعس عن القيام بذلك، فكثيرًا ما نرى بعض الحيوانات ملقاة على قارعة الطريق بعد أن كُسِرت ساقه، وبعد أن كان قد عمل مع صاحبه لسنوات، فإذا به يتركه ولا يعالجه بسبب أنه لم يعد قادرًا –حتى لو عولج– على الحمل والجرّ، ومثلها القطط والكلاب التي كانت تحرس وتسلّي.

ذكرني ذلك بالفرق بين الجيل السابق والجيل الحالي، كان الناس في الجيل السابق يجتهدون في إصلاح ما يتعطّل، أمّا الآن فهم يلقونه بعيدًا ليشتروا آخر جديدًا، بينما الطبيب الماهر هو الذي بدلًا من خلع الضرس فإنه ينظفه ويحشوه ويحتفظ بالتالي به. إنه الفرق بين الإقصاء والإلقاء من جهة، العلاج من جهة أخرى. وهذا السلوك يعني ضمنًا تحويل العاجز

والناقص إلى كامل وسليم، وهو ما فعله الله حين أصلح ما فسد في آدم ليعيده إلى رتبته الأولى بدلًا من إفنائه وخلق آخر جديد بدلًا منه.

وقد وُصِف الله في سفر أيوب هكذا: «لأَنَّهُ هُوَ يَجْرَحُ وَيَعْصِبُ. يَسْحَقُ وَيَدَاهُ تَشْفِيَانِ» (أيوب ٥:١٨)، فهو يضرب ويجرح للبنيان والعلاج وليس للانتقام، كما أوصى الرب خدّامه «وَيَقُودُكَ الرَّبُّ عَلَى الدَّوَامِ، وَيُشْبِعُ فِي الْجَدُوبِ نَفْسَكَ، وَيُنَشِّطُ عِظَامَكَ فَتَصِيرُ كَجَنَّةٍ رَيَّا وَكَنَبْعِ مِيَاهٍ لاَ تَنْقَطِعُ مِيَاهُهُ. وَمِنْكَ تُبْنَى الْخِرَبُ الْقَدِيمَةُ. تُقِيمُ أَسَاسَاتِ دَوْرٍ فَدَوْرٍ، فَيُسَمُّونَكَ: مُرَمِّمَ الثُّغْرَةِ، مُرْجِعَ الْمَسَالِكِ لِلسُّكْنَى» (إشعياء ٥٨:١١،١٢). الله يشفي ويرمّم ويعالج، ولا يقصي أو ينتقم.

الفتيلة المُدخِّنة

هي المصباح الذي بدأ نوره في الذبول، هو الشعلة التي بدات تخبو، هو الشخص الذي قارب على اليأس، والخدمة التي تحتضر، والاجتماع الذي يتهاوى، والنجم الذي بدأ في الأفول، شخص بدأ في الإقلال من المجيء، وشخص قارب على الإدمان، وآخر على وشك الضياع، وبقايا فضيلة في شخص، وبقايا مال لدى مستثمر، وشركة قاربت على الإفلاس، وشخص قارب على الموت... كل هؤلاء يمكن أن يبدأوا من جديد متى وجدوا من ينفخ فيهم بقليل من الرجاء، بكلام مشجّع، أو قرض من المال، أو تنشيط القلب بالصدمات. قليل من البنزين يشعل الجمرة التي تكاد أن تخبو، ونسمع عن الغريق الذي يتعلق بقشة، تصوروا طفلًا يحاول أن ينقذ حشرة أو حيوان أليف، عندما يمد له يد العون، وكم تكون سعادته عندما ينجح في انقاذه.

كل شخص له أهمية، وكل بقية يمكن أن تنمو، والعنقود إذا بقيت منه حبة فهو بركة.. وحبة حنطة واحدة قد تتحول إلى حقل من القمح، والخميرة الصغيرة يمكن أن تخمّر العجين كله، ولنتذكر الآن كيف قال أبو الولد

المريض للسيد المسيح عندما سأله عن إيمانه : «فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو الْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي» (مرقس ٩:٢٤)، إن إيمانه كان من الضعف وكأنه بدون إيمان، ولكن الله اكتفى بهذا القدر الخفيف، ولا شك أن الرجل اشتد إيمانه بالله بعدها، بل أن الله لا يطلب سوى الرغبة فقط والباقي سيتكفّل به.

كم مرة كنّا مثل الفتيلة المدخّنة فنفخ فينا الله، عندما أصبحنا مجرد صورة فاقدة الحياة فنفخ الله فينا نسمه الحياة أو قبلة الحياة (ومن هنا يأتي التعبير «ينفخ في صورته»)؟ كم مرة دبّ اليأس في قلوبنا فتجدّد فينا الرجاء؟ وكم مرة كادت التجارب أن تعصف بحياتنا وتدخّل الرب، وإلّا لكنا أُبتُلِعنا من اليأس.

لا تكن كالهواء الساخن أو الصقيع، ولا تحدث ضجيجًا، بل كن مثل النسيم الهادئ، يرطّب ويلاطف، «لا يسمع أحد صوته» إلّا أنه يترك أثرًا جميلًا، ولا تتورّط في خصومة مع أحد، وإنما كن كمثل الكرة تتحرك باتجاه الكل في سلاسة ويُسر. شجع الناس ولا تكسر مجاذيف أحد. انفخ في الناس رجاءً وتشجيعًا، لعل بعض هذه النفخات «أو النفحات» تحيي من قارَب على الموت ومن سئم الحياة وفقد ثقته في الكل.

«شَدِّدُوا الأَيَادِيَ الْمُسْتَرْخِيَةَ، وَالرُّكَبَ الْمُرْتَعِشَةَ ثَبِّتُوهَا» (إشعياء ٣٥:٣)

ليس نبيٌ بلا كرامة إلا في وطنه

«وَلَمَّا أَكْمَلَ يَسُوعُ هذِهِ الأَمْثَالَ انْتَقَلَ مِنْ هُنَاكَ، وَلَمَّا جَاءَ إِلَى وَطَنِهِ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ فِي مَجْمَعِهِمْ حَتَّى بُهِتُوا وَقَالُوا: مِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ الْحِكْمَةُ وَالْقُوَّاتُ؟، أَلَيْسَ هذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟، أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ جَمِيعُهُنَّ عِنْدَنَا؟ فَمِنْ أَيْنَ لِهذَا هذِهِ كُلُّهَا؟، فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهُمْ: لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَفِي بَيْتِهِ، وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ» (متى ١٣:٥٣-٥٨).

تتباين ردود الأفعال حول كلمة الله: فهناك من يقبلها، ومن يقاومها، ومن يستخفّ بمضمونها، ومن يستخف بظاهرها وشخصها. ومن المهم الاستفادة بكل ما يُقال على أنه رسالة من الله رأسًا، كثيرون خسروا وتعطّل خلاصهم بسبب فحصهم للمتكلم، أحيانًا الذين نشأوا معه والذين ينافسونه، ويتخطّى الأمر أحيانًا الإعراض عن الكلام والمتكلم إلى تسفيهه والتقليل من شأن ما يقول.

وكم من مرة رفض شخص أن يشتري شيئًا ما من شخص آخر كان أفقر منه، أو أن يسكن في مكان كان له ثم بيع لآخر، أو يبيع مكانًا لشخص كان من رعاياه مهما كان الفرق بينهما في الغنى، أو أن يزوّج أولاده لمن كانوا يعملون عنده أو كان يعتبرهم دونه، والرجل ليس من قال كان أبي بل من قال هأنذا..

العجيب أن الجموع بُهِتت من تعليم يسوع ولكن كثير من معارفه

احتقروه! وتعبير «ابن النجار» هنا يعني أنه ليس متعلمًا ولا متتلمذًا على الربيين، فهو في نظرهم لم يتتلمذ على هلّيل أو إسماعيل أو شمعي أو غمالائيل، كما أن التعيير هنا بالأم والأب والإخوة «أَلَيْسَ هذَا ابْنَ النَّجَّارِ؟ أَلَيْسَتْ أُمُّهُ تُدْعَى مَرْيَمَ، وَإِخْوَتُهُ يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَسِمْعَانَ وَيَهُوذَا؟، أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ جَمِيعُهُنَّ عِنْدَنَا؟»، ربما بسبب أنهم ليسوا من العائلات الكهنوتية أو الأنبياء أو العائلات الشهيرة. وهو الذي يليق بنا أن نفتخر بنسبتنا إليه..

إيّاك أن تعيِّر أحدًا بأهله، وإيّاك في المقابل أن تستعار من أهلك، بل يجب الافتخار بالأب والأم، ويقول ابن سيراخ «أُذْكُرْ أَبَاكَ وأُمَّكَ إِذا جَلَسْتَ بَيْنَ العُظَمَاء» (سيراخ ١٨:٢٣) فيزداد بذلك قدرك بين الناس، لأن من ليس له خير في أهله ليس له خير في الغير، فقد يكون الشخص ابن عامل بسيط أو من أرباب بعض الأعمال التي يعتبرها البعض حقيرة، ولكنه كافح كثيرًا ليتعلم أولاده في كليات القمة، ولكن بعضهم بدلًا من الافتخار به قد يخفون حقيقته عن الآخرين! وهل كان لزامًا على الأب أن يجعل أولاده مثله؟

أتذكر أنه من بين الأنبياء من كان جامع جميز مثل عاموس، ومنهم من كان مزارع مثل جدعون، ومنهم راعي الغنم مثل داود، وصياد السمك مثل بعض من تلاميذ المسيح. ومن القديسين من كانوا بسطاء، منهم الراعي والمزارع والنساج، ومنهم المطرب والزمار. ومن البطاركة والأساقفة كان الإسكافي كإنيانوس، والتاجر مثل الأنبا ابرآم ابن زرعة، وبائع الزيت كالقديس الأنبا صرابامون، والنجار والخباز وغيرهم.

ومما يؤسف له أن اليهود هنا يسلكون المسلك ذاته، فبدلًا من الانبهار بالمعجزة يبحثون عن السبت وكسره، كما حدث في جميع المعجزات التي تمت في السبوت، والآن يبحثون عن الأهل والقرية وغيرها، ولعل تحرُّك اليهود بعد معجزة إقامة لعازر دليل كبير.

ومن ثَمّ رفض السيد أن يصنع مزيدًا من المعجزات هناك «وَلَمْ يَصْنَعْ هُنَاكَ قُوَّاتٍ كَثِيرَةً لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ» (آية ٥٨)، معلِّلًا ذلك بأنه «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ»، أي أنه مهما صنع من آيات فإنهم لن يتقبلوا، وصار تعقيب السيد المسيح هنا «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ» مثلًا منذ ذلك الوقت، يُقال عن كل شخص يرفضه مجتمعه ويرحّب به مجتمع آخر.

ولكن لماذا الناصرة؟

وكان وطن المسيح الذي تربّى فيه هو الناصرة «وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ حَيْثُ كَانَ قَدْ تَرَبَّى. وَدَخَلَ الْمَجْمَعَ حَسَبَ عَادَتِهِ يَوْمَ السَّبْتِ وَقَامَ لِيَقْرَأَ» (لوقا ٤:١٦)، «وَلَمَّا أَكْمَلُوا كُلَّ شَيْءٍ حَسَبَ نَامُوسِ الرَّبِّ، رَجَعُوا إِلَى الْجَلِيلِ إِلَى مَدِينَتِهِمُ النَّاصِرَةِ» (لوقا ٢:٣٩)، «ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا» (لوقا ٢:٥١).

كانت الناصرة تُعَد منطقة بسيطة، وتُعتبَر غير متحضّرة مثل أماكن أخرى، كما انتشرت فيها عصابات اُشتُهِرت بخطورتها. ومن الآباء من كتب أن تعبير «إِنَّهُ يُدْعَى نَاصِرِيًّا» تعني يُدْعَى مُحتقرًا، من هنا نفهم الآية: «فَقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟ قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: تَعَالَ وَانْظُرْ» (يوحنا ١:٤٦). ولكن القديس بولس يقول: «كَخَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ، كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ، كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ» (٢كورنثوس ٦:١٠)، ويصف نفسه بأنه السقط أي ما يقع من الشجرة «وَآخِرَ الْكُلِّ -كَأَنَّهُ لِلسِّقْطِ- ظَهَرَ لِي أَنَا» (١كورنثوس ١٥:٨) رغم أنه كان عظيمًا.

ليس ذلك فحسب، وإنما هناك من كان أصله وجنسه شريفين ثم أوغل في المعاصي أو الجهل، وما أكثر هؤلاء الذين جلبوا العار على ذويهم، وأضاعوا مجدهم، ولوّثوا سمعتهم. سمعت عن أميرة صينية بسبب المخدرات

باعت كل شيء: حليها وأراضيها ثم قصرها، وبعد ذلك صارت تتسول لتشتري الأفيون، ومن اشترى كل ذلك ثم صار يتصدق عليها كان أحد خدمها القدامى والذي شبع منها ركلًا وإهانة!

على الجانب الآخر يحدث في كثير من الأحيان أن يفضّل الشخص نفسه أن يبدأ حياته العملية في مكان آخر، ربما لأنهم في مدينته يعرفون ضعفاته، ومن ثَمّ تصبح هذه الضعفات ماثلة قدام عينيه وكذلك أعين ذويه، وأمام من قد يستخدمونها ضده، وقد يعيّرونه بها، وقد لا يكون له في الغالب ذنب فيها، ولكن الآباء يأكلون الحصرم وأسنان الأبناء تضرس، وقد يسلك أحد أفراد أسرته سلوكًا خاطئًا فيحمل الباقين وزره، مثل شخص ترك الإيمان أو تطلق أو سُجِن أو حتى قَتَل وغيرها.

وقد ينكر الناس على البعض أن يغتني إذا كان في السابق فقيرًا، وينكرون عليه الشهرة إذا كان بسيطًا. وكما أنه لا يوجد إنسان ليست له نقطة ضعف، فإنه يُحسَب شرفٌ للإنسان أن يكون عصاميًا، ويتحدى الظروف وينجح، ويغتني ويشتهر.

وقد يكون فقيرًا وبسيطًا في وطنه، ومن عشيرة قد تكون الذُلى مثلما كان جدعون، ولكنه ما أن يخرج من مكانه حتى يصبح عظيمًا، ومن ثَمّ تفتخر به أسرته، وربما لو أكمل حياته في بيئته لاحتقروه وتعطّل عمله.

العجيب أن بعضًا من عائلة الرب يسوع قاوموه وطلبوا القبض عليه، ربما بضغط من المعارضين، وربما بسبب المتاعب التي سبّبها لهم دون قصد، بل وصل الأمر أنهم قالوا عنه إنه مختل: «وَلَمَّا سَمِعَ أَقْرِبَاؤُهُ خَرَجُوا لِيُمْسِكُوهُ، لأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ مُخْتَلٌّ» (مرقس ٣: ٢١)! إلى هذا الحد كان بلا كرامة في وطنه. هكذا يمكن أن يُحتقَر الشخص من ذويه أنفسهم وليس من المحيطين أو الأعداء فقط.

وأتذكر هنا بعض الشخصيات المصرية وليس القبطية فقط، والتي لم تجد فرصتها هنا في المنيا أو حتى في مصر، ومع ذلك نجحت بقوة خارج البلاد، مثل الأطباء الذين لم يجدوا فرصتهم هنا وأبدعوا في الخارج، ومثل الأطفال الذين تم التمييز ضدهم وظُلِموا في مدارسهم، فلما انتقلوا للدراسة في مجتمع آخر أبدعوا وأبهروا مدرسيهم...

وربما يكون النبي أو الشخص بلا كرامة في وطنه بسبب الغيرة منه، ولكن المواهب لا تهدّد الأقوياء، ومن هنا أرجوكم تمسكوا بكل شخص موهوب وبكل شخص متميز وواعد، لا تجهضوا موهبة ولا تغاروا من أحد، فإن المواهب تهدّد الضعفاء فقط، وأمّا الأقوياء فيقدمون الآخرين عليهم ويدفعون بهم إلى النجاح وإلى الظهور، ويكفيهم فخرًا أن يكبر تلاميذهم من خلالهم، كما أن تميّزهم وشهرتهم لن تنتقص من كرامتهم في شيء بل تزيدها، ويحوز الكبير على احترام وتقدير الآخرين، فإن الذي له يُعطى فيزداد، وأما الذي ليس له فالذي عنده يؤخذ منه... وكم من شخص حَرَم المجتمع والآخرين من فوائد ومزايا شخص آخر بسبب حسده وغيرته أو خلافه معه.

يحدث هذا في الكهنوت، عندما لا يلتفت أحد سواء من الكهنة أو المسئولين لبعض الخدام المناسبين لهذه الخدمة، وربما لا يرون فيهم كاهنًا محتملًا، ولكنه ما أن يُدعى الشخص إلى الكهنوت ويخدم في مكان آخر حتى يتضح أنه كاهن عظيم، واتضح بالتالي أنه لم تكن له كرامة في وطنه. وفي المقابل كثيرًا ما يكون الكاهن الآتي من مكان آخر أكثر قبولًا وهيبة من الكاهن الناشئ في قريته، حيث يكون على مسافة متساوية من الكل، والعجيب أن الناس يرحّبون به ويفسحون له مجالًا.

وفي بيوتنا أحيانًا لا تجد الفتاة أو الشاب مكانه أو مكانته داخل الأسرة،

بل يجدون التحقير والاستخفاف والشتم أحيانًا، في حين يحوز على حب واحترام الجميع خارج البيت، سواء الذين يمتدحون جمال الفتاة أو الذكاء أو قوة الشخصية، أو الاستئناس إلى رأيها، ولكنها ليست لها كرامة في وطنها.

وهكذا بينما تعاني كثيرًا جدًا وهي بين أسرتها، وقد تشعر بالغربة بينهم، وقد لا تحصل على حقوقها كاملة، فإذا تزوجت تنسّمت الراحة مع زوج يقدّر شخصيتها وإمكانياتها، وتستطيع أن تكوّن أسرة ربما أفضل من أسرتها، وتنال كرامة لم تنلها بين أفراد أسرتها، ومن ثَمّ ينطبق عليها المثل «ليس نبي بلا كرامة إلّا في وطنه».

ويحدث ذلك في الطب حين يعرض الشخص نفسه على طبيب خارج البيت، بالرغم من أن أباه وأمه ربما كانا طبيبين مشهورين وموثوق بهما، ويأتي إليهما الجميع من كل صوب وحدب. ومَثَله في ذلك مَثَل أصحاب محلات الملابس والكثير من المنتجات التي يتهافت عليها الجميع إلا الأولاد والبنات في البيت.. وينظر الطبيب وصاحب المصنع إلى أولاده قائلًا حقًا «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ».

ذكّرني ذلك بالبضائع المصرية الجيدة والتي تُصدَّر إلى الخارج لتُباع بسعر غالٍ ثم يستوردها المصريون بأسعار خيالية، أو أن يُعاد تصنيع بعض من المواد الخام المُصدَّرة من هنا في مصر لتُعاد إلينا بأضعاف أسعارها، مثل الحجر الجيري والذي يُباع هنا بقروش قليلة ليتحول إلى مواد للطلاء والمكياج والأدوية، هكذا كانت الخامات بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِا....

وأحيانًا يرى البعيدون في الشخص أو المنتج ما لا يراه الأقربون، مثل الأماكن السياحية والآثار والمناظر الطبيعية والنيل والجبل والزرع... قال أحد الزائرين ناظرًا إلى المنيا والنيل من فوق في المنيا الجديدة: «هل تشعرون بقيمة هذا؟»، ورددت عليه بأنه لم يعد لدينا الوقت الكافي لنستمتع

بمثل ذلك. ومثلها الأهرامات وأبو الهول وغيرها، ويبدو أن الإنسان يعتاد ما هو فيه من خير وشكل ورائحة.. إلى أن يجيء من يلفت انتباهه.

ولكي نكون صادقين، ربما سبب الحساسية تجاه شخص ما أو عدم الكرامة، هو تاريخ غير مُحبَّب مرتبط بالشخص، لخطية أو قضية أو خلاف، كما أسلفنا، ومن هنا يكون من الافضل أن يبدأ في مكان جديد، فرصة جديدة حيث لا يلاحقه التاريخ السيئ، وحتى لا يذكّره المكان بضعفاته، وهذا ليس ضعفًا وإنما حكمة، مثلما يتخذ شخص ما سكنًا جديدًا وعملًا جديدًا وجيرانًا جُدد، ويحدث ذلك حين يترك أحدهم دولته ليسكن في أخرى.

تمّم خدمتك، حقّق رسالتك، غالب أوجاعك، ابدأ بنفسك، انظر أمامك، لا تيأس ولا تربط مصيرك بماضٍ قد يُستحى منه، رنّم حتى لو لم يسمعك أحد، مثلما كان يفعل الأب أندراوس الصموئيلي، اعمل وإن لم تُشكر، واجتهد حتى وإن لم تنل أجرًا...

«هنَذَا أُصَيِّرُهُمْ يَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَ رِجْلَيْكَ، وَيَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا أَحْبَبْتُكَ» (رؤيا ٣:٩).

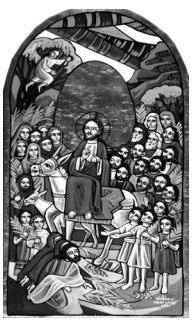

مَنْ يُهلك نفسه من أجلي يجدها

قال الرب يسوع إن مَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِه يَجِدُهَا ومن وجد نفسه يضيعها ومن أضاعها يجدها «فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا» (مرقس ٨:٣٥) ويقصد بالطبع إنكار الذات، أي تقديم مجد الله على مجده الشخصي، «وَدَعَا الْجَمْعَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ:مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي» (مرقس ٨:٣٤)، فهناك عبادة الذات مثل عبادة الأصنام، ويظهر ذلك في حب الذات وتدليلها والخوف عليها من الإهانة وتعظيمها... ومن محبة الذات أن يحب شخصًا فتاة أخرى، والواقع أنه يحب محبتها له ومجاملاتها ويُعجَب بذاته. ويُسمي الآباء ذات العجب بالذات، مثل الذي يحب أن يتنسّك ويمارس بعض الإماتات إرضاءً لذاته، ويكون ذلك غالبًا دون إرشاد. ومن يُعجَب بعلمه ويتفاخر على الآخرين بسببه... ومن إنكار الذات أن تنسب النجاحات لآخرين، وتضع نفسك في المرتبة الأخيرة، وأن تقدم الآخرين فقط وتختفي أنت، وهذا في الإدارة وفي الخدمة وغيرها، وهو ما شرحه الرب في مسألة المتكآت.

من بين الذين أهلكوا أنفسهم:

١- **الشهداء:** قال القديس بولس الرسول حياتي ليست ثمينة عندي، وحياته في المسيح، وقال لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح. ولم يحب الشهداء حياتهم حتى الموت «وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْخَرُوفِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ، وَلَمْ يُحِبُّوا حَيَاتَهُمْ حَتَّى الْمَوْتِ» (رؤيا ١٢:١١)، ولم تُغرهم الوعود البرّاقة

والامتيازات، ولم تكن حياتهم أغلى من إيمانهم، فلما ضحّوا بأنفسهم وجدوها، لأن المُضطهِد ليس له سلطان على شيء سوى هذا الجسد الفاني والذي سيموت حتمًا، وكان الشهداء يدركون ذلك جيدًا.

٢- **الكارزون:** وهم الذين تركوا كل شيء وتبعوا المسيح وصاروا صيادين له، مثل أكثر التلاميذ، الذين تركوا الشباك والسفن، ومنهم من استقال من عمله ومنهم من أنفق كل ماله وممتلكاته على الخدمة، ومنهم من افتقر إلى الخبز، ومن طاف بلا مأوى لسنين طويلة... وإذا قارنت حياته الأولى بما صار عليه قال لك: إنني غني بالمسيح، وأن الله يخزي الأغنياء والحكماء بالفقراء والجهلاء، وأنه أشبع الجياع خبزًا وصرف الأغنياء فارغين. ومثل الكارزين المكرسون والمكرسات والكهنة وغيرهم، الذين يموتون كل يوم ويواجهون المخاطر والإهانة.

٣- **الآباء والأمهات:** وهم الذين اختاروا قاع البيت وآخر الصفوف، وبذلوا حياتهم من أجل الأزواج والأولاد، ومثلهم الزوج أيضًا.. يأكلون أقل، ويشربون أقل، ويلبسون ويترفّهون أقل. وتجد وراء كل رجل عظيم امرأة، وكل شاب ناجح أم فاضلة، حتى لو قيل إنها أم الطبيب ففي النهاية هو الطبيب وهو العظيم، ويكفيها أن يكون عظيمًا محبوبًا حتى لو تنكّر لها، فهي راضية، ترقبه من بعيد بفرح. ومثل هؤلاء الشابات اللاتي رفضن أن يتزوجن حتى يهتموا ببقية الأولاد أو الوالدين المرضى، ومثلهم بعض الأولاد الذين لم يهتموا بأنفسهم وإنما اهتموا بأخواتهم حتى يزوجونهن، وقد لا يتزوج ذلك المضحّي ولكنه راضٍ بما قام به، ولم يترك له نسلًا ولكن نفسه التي أنكرها هو حفظها عند المسيح.

٤- **المخترعون:** وهم الأشخاص الذين أفنوا حياتهم في سبيل إراحة

الناس والتخفيف عنهم، وبعضهم مات مريضًا ولم يجد العلاج، وبعضهم فقيرًا، ومن مات من الجوع، رغم كل ما قدموه. ومنهم من نُسِب عمله إلى آخرين، ومنهم من لم يذق طعم الراحة في حياته لينجز اختراعه. ولنتخيل اليوم العالم بدون هذه الاختراعات، وأبسطها التليفون المحمول والذي بإمكانك الوصول به إلى أُناس على الجانب الآخر من الكرة الأرضية. وأكثرهم لم يشكرهم أحد، بل ربما اعتبروهم مجانين وغير أسوياء، واحتملوا الإهانة ولم يثوروا لكرامتهم، بل لم يكترثوا أصلًا لذلك.

٥- **المتضعون:** وهم الأشخاص الذين يشعرون أن كل ما فيهم هو هبة من الله لا يجب أن يفتخروا بها، وهم الذين يقولون: أَنَا مَنْ أَنَا؟ ويقدمون الآخرين على أنفسهم بفرح. أذكر هنا القديس إيسوذورس الذي اختفى خلف الأنبا موسى، والقديس قاريون الذي أُشتُهِر ابنه (القديس زكريا) أكثر منه، والقديس بموا الذي أُشتُهِر القديس يحنس أكثر منه، والقديس بيجول مع الأنبا شنوده، وغيرهم... وكان النموذج لكل هؤلاء يوحنا المعمدان والذي قال إنه صديق العريس، وأنه ينبغي أن ذاك يزيد وأنه هو ينقص. وعلى رأس الجميع السيد المسيح الذي أخلى ذاته آخذًا صورة عبد «لكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ..» (فيلبي ٢:٧،٨).

إن الأشخاص المؤثرين في الحياة هم المختفون والمنكرون لذواتهم، وهم في الحقيقة كثيرون، وهم العامة الذين يعبدون في هدوء، ويعملون في هدوء، ويرحلون أيضًا دون ضجيج، هؤلاء يراهم الله ويرى عملهم في الخفاء ويجازيهم علانية. ويقول القديس باسيليوس والقديس إشعياء: «إن أردتَ أن تكون معروفًا عند الله، فاحرص ألّا تكون معروفًا عند الناس».

مَن هو الأعظم

تبدأ قصة النصيب الأعظم بالفهم المادي لملكوت المسيح، فعندما قال الرب لتلاميذه: «متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده... تجلسون أنتم على اثني عشر كرسيًا» (متى١٩:٢٨،٢٩) ، من ثَمّ اتجهت أنظارهم على الفور إلى توزيع الوزارات..! وأوعزت الأم الطيبة سالومي إلى ولديها يعقوب ويوحنا بأن يطلبا المقامين الأول والثاني في تلك المملكة، مثلما نقول الآن «وزارات سيادية»، مع أن الرب نبّههم أكثر من مرة إلى أن مملكته ليست من هذا العالم.

وعلى مستوى الطقس اليهودي كان الابن الأكبر يجلس عن يمين رب الأسرة بينما يجلس الأصغر عن شماله، ولكن السيد عندما أشار إلى أن تلاميذه سيجلسون على اثني عشر كرسيًا ويدينون أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، كان يعني بذلك أنهم «سيبكّتون» اليهود الذين رفضوه، مثلما قيل أيضًا عن رجال نينوى الذين سيقومون في الدينونة مع رجال «هذا الجيل» ويدينونه لأنهم تابوا بمناداة يونان، أي يبكّتونهم ببرّهم لأنهم تابوا بمناداة يونان.

وربما يكمن السبب في طلب الأم والابنين معًا هذا الامتياز هو صلة القرابة التي بين العائلتين من جهة، والوضع الاجتماعي المتميز لعائلة زبدي، وكذلك الامتياز الممنوح للتلميذين مع القديس بطرس في اصطحاب السيد لهم في المهام الخاصة (مثل الذهاب بيت يايرس، وجبل التجلي، وبستان جثسيماني)، بل لقد تذمّر بقية التلاميذ من ذلك، وهنا عاتبهم الرب قائلًا: «إن رؤساء الأمم يسودونهم، والمتسلطين عليهم يُحسبون محسنين»،

أي أن الرئاسة تغري بالتسلّط، وأن المتسلطين يأخذون أجرهم من خلال مديح الناس لهم «بإذاعة أنهم محسنون» (أي الإعلان عن إحساناتهم، وبالتالي يستوفون أجرهم)، وأكّد لهم أن سر العظمة يكمن في الاتضاع واتخاذ المتكآت الأخيرة، وأعطى ذاته مثالًا؛ فبالرغم من أنه الرب والسيد والإله، إلّا أنه جاء لا ليُخدَم بل ليَخدِم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين. لقد حزن الرب من تفكيرهم هذا إذ كان للتوّ قد تحدّث معهم عن الصليب، وأن مملكته ليست من هذا العالم، وأنه مجدًا من الناس لا يقبل.

إن مشكلة الناس في العالم هي: «من هو الأعظم والأقوى والأغنى والأشهر؟»، صراع الأشخاص وصراع الحكومات والعائلات، فهناك العِرقية والقبلية والتنافس بين العائلات، وهناك صراع التسلح والاقتصاد والقوة النووية بين الشعوب، ولكن السيد أراهم طريقًا أفضل للعظمة الحقيقية وهو الاتضاع والبساطة، فأخذ طفلًا وأقامه في الوسط واحتضنه، وقال إن من لا يقبل ملكوت السموات مثل هذا الطفل فلن يدخله، وأعلن بالتالي أنه يحتضن البسطاء والضعفاء والمتضعين، وهكذا فإن الكثير من القديسين أخذوا الملكوت بالفقر والعوز – مثل الأنبا بولا – وذلك بالتواري عن الكل، ومنهم من أخذه بالضيقات والآلام والأمراض، ومنهم من جعل نفسه جاهلًا لكي يحكّمه الله.

غير أن العظمة والغنى والشهرة ليست هي الخطر الحقيقي، وإنما السعي لها والرغبة فيها هي الخطورة بعينها، مثل المال الذي لا يُعَد بذاته خطرًا، بل تكمن الخطورة في السعي إليه ومحبته والاتكال عليه. كما يجب الانتباه إلى أن المشكلة الحقيقية هي «الأعظم»، أي أنه قد لا يهتم الإنسان بأن يكون عظيمًا قدر اهتمامه بأن يكون الأعظم والأغنى والأقوى.. قد لا يعنيه كم معه من المال ولكن المهم أن يكون ما معه أكثر مما مع الآخرين! من أجل التفوق فقط لا غير. هنّأتُ طفلًا ذات مرة لأن

ترتيبه كان الأول، ففاجأني بقوله: «لا يهمني أن أكون الأول قدر اهتمامي أن أحصل على أفضل الدرجات، دون مقارنة مع آخر»، ولما سألته عن السبب أجاب بأنه من الممكن أن يكون ترتيبه الأول ولكن بمجموع هزيل! فتأثرت من فكره ومنطقه.

وأراد الرب اختبار التلميذين إن كانا يستطيعان أن يشربا الكأس التي يشربها هو، وأن يصطبغا بالصبغة التي يصطبغ بها هو، أي أن يجوزا الآلام عينها وسفك الدم، وأبدى التلميذان فورًا استعدادهما لذلك، فأجابهم الرب بأنه حتى وإن كان هذا صحيحًا، فإن الجلوس عن اليمين وعن اليسار له حسابات أخرى.

إن الطريق الحقيقي للعظمة كما رسمه السيد المسيح هو الاتضاع والعوز والمتكأ الأخير وطلب ملكوت السموات وبره، لأن هذه كلها (الأعظم) تطلبها الأمم، فقد يتطلّب الوصول إلى الغنى والعظمة والقوة سبلًا غير شريفة، وهذه الرغبة يمكن أن يُطلق عليها: «اللص السلّاب» الذي يسرق منّا الملكوت، فمنطق الملكوت هو «الأضعف والأصغر والأفقر»، فالمسيح يسكن مع الفقراء بين الأكوام وفوق التراب، وبين المرضى والمتعبين، ويحب المتضعين.

أخيرًا.. فالذين يُمدَحون هنا قد يُكافَأون هنا، وربما مُدِحوا في الظاهر ولُعِنوا في الباطن، كما أن: «الفضيلة إذا اُشتُهرت نُهِبت».

حجر الزاوية

قالَ لهُمْ يَسوعُ: «أما قَرأتُمْ قَطُّ في الكُتُبِ: الحَجَرُ الّذي رَفَضَهُ البَنّاؤونَ هو قد صارَ رأسَ الزّاويَةِ؟ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كانَ هذا وهو عَجيبٌ في أعيُنِنا! لذلكَ أقولُ لكُمْ: إنَّ ملكوتَ اللهِ يُنزَعُ مِنكُمْ ويُعطَى لأُمَّةٍ تعمَلُ أثمارَهُ. ومَنْ سقَطَ علَى هذا الحَجَرِ يتَرَضَّضُ، ومَنْ سقَطَ هو علَيهِ يَسحَقُهُ!». ولَمّا سمِعَ رؤَساءُ الكهنةِ والفَرّيسيّونَ أمثالَهُ، عَرَفوا أنَّهُ تكلَّمَ علَيهِمْ. وإذ كانوا يَطلُبونَ أنْ يُمسِكوهُ، خافوا مِنَ الجُموعِ، لأنَّهُ كانَ عِندَهُمْ مِثلَ نَبيٍّ. (متى ٢١:٤٢-٤٦).

على أبواب الصليب، ومع نهاية خدمة السيد المسيح على الأرض، كان صادقًا جدًا في مواجهتهم بالحق؛ فقد أتى لخلاصهم، وأعلن لهم كيف رفضوه هو الحبيب والفادي والمخلص وصاحب العرس وصاحب الكرم، فلمّا سألهم عن رأيهم في الكرّامين الأردياء، أجابوا بتلقائية «يأخذ منهم الكرم ويسلمه إلى كرّامين آخرين» (متى ٢١:٣٣-٤١)، وكان بذلك يستدرجهم إلى منصّة المحاكمة، ومن ثَمّ أعلن الحُكم عليهم: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ فِي الْكُتُبِ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ؟»، وكان يشير إلى موقفهم منه ومن الملكوت والخلاص. إلى خاصّته جاء وخاصته لم تقبله، كما أن الرؤساء بعد أن رفضوا الحجر، لا يصلحون لأن يكونوا بنّائين، ولذلك سيختار الله بنّائين آخرين للعمل في بنائه الجديد.

البِنَاء العملاق –والذي كان الحجر المقصود هو أهم جزء فيه– كان عبارة عن عِقد أو «آرش» عملاق، وهو يُبنى من الجانبين على إطار

frame يتخذ شكل الـ»آرش»، والبنّاؤون المحترفون يبنون دون «فورمة». وعندما التقى البنّائون قرب النهاية صرخ كلٌّ منهما في العمال: «أين حجر الزاوية؟ أين حجر العِقد؟»، وتلفّت العمال متعجّبين ماذا يعني البنّاء بذلك؟! فقال لهم إن مفتاح الـ»آرش» زاوية البناء، ثم راح يشرح لهم شكله وفكرته، وهنا فاجأوه بأنهم ألقوا بهذا الحجر بعيدًا لأن أبعاده غير متساوية مثل بقيّة الحجارة (كما أن الكلمة العبرية «بنّا» والتي تعني «زاوية» تتشابه مع كلمة «ابهن» والتي تعني «حجرًا»)!

والسيد المسيح يقارن هنا بين الأمرين: «الابن المرفوض» و»الحجر المرفوض» (في العبرية: بن وايبن ben, eben)؛ وقد قيل عنه: «وجيلُهُ مَنْ يُخبِرُ بهِ؟» (أعمال ٨:٣٣)، أي: في جيله من يشبهه، أو ليس له مثيل. هكذا شابهنا في كل شيء إلاّ من جهة لاهوته ومن جهة أنه بلا خطية، وفي آلامه كان بلا منظر نشتهيه (إشعياء ٥٣:٢).

وفي العبادات الوثنية (مثل الكنعانية) كان هذا الحجر يُستَقبَل باحتفالات مهيبة، وتُقدَّم الذبائح البشرية له، وعند وضعه كان توضع تحته تلك الذبائح؛ وهي عادات تجنّبها بنو إسرائيل.

ولكن لماذا رفض اليهود المسيح؟ كان اليهود يطلبون أن توافق تعاليمه انحرافاتهم وآمالهم الدنيوية وتمسّكهم الحرفي بالناموس، ولكن المسيح أتى لا لينقض الناموس بل ليكمل هذا البناء بحجر الزاوية الذي هو نفسه، فإن غاية الناموس هي المسيح (رومية ١٠:٤)، كما أن الناموس يجد كماله في المسيح، وبدون المسيح يظل الناموس ناقصًا ولا يقدم الشفاء.

الله الذي رفضوه –مثلما يرفضه البعض الآن– هو صمام الأمان في الحياة، وهكذا كل من يرفض الله من حياته تتهدّد تلك الحياة بأن يتهاوى البناء، هكذا الذين يرفضون الله الآن ويحاولون إسكات ضمائرهم عن كثرة

تبكيتهم على خطاياهم، وبدلًا من مواجهة أنفسهم والتخلّي عن خطاياهم، يرفضون الله، ويحاولون إقناع آخرين بأنه لا إله! ويحاولون من خلال مواقع التواصل الاجتماعي الترويج للإلحاد، كما يُؤخَذ في الاعتبار أن نسبة التديُّن آخذة في الانحسار على مختلف الاديان.

هكذا نحن نرفض ما هو لخلاصنا إذا لم يكن بنفس الأبعاد والمنظر الذي نرغبه، والنصيحة التي يقدمها البعض وقد لا تروق للسامع (حجر مرفوض) هي ذاتها مفتاح وصمام الأمان. الراحة الإلهية ليست منطقية أي لا توافق العقل والمنطق دائمًا، بل تبدو أنها ليست على هوانا، ولكن ليس كل ما يرضينا يبنينا، ولا كل ما يبنينا يرضينا.

ومن بين ما قد نرفضه كلمة في نصّ (أو حرف، أو ربما علامة ترقيم) قد تكون مفتاح النص، ونوعًا من الأدوية قد يكون فيه الشفاء، وصنفًا من الطعام قد يكون فيه الغذاء... ويأتي الرفض بناءً على الشكل ودون دراسة، وقد يكون شخص بين مجموعة ويكون أهمها ومفتاحها.

في القديم كان الحجر يشير إلى الأمّة اليهودية التي رُفِضت من الأمم، وكان يجب أن يصبحوا رأس الزاوية في العالم كله ولكنهم انحمقوا، وبرغم خطاياهم كانوا يظنون أنهم أهم حجر في بناء الكون! ورأى المفسرون الأوائل أن الله عندما قال ذلك على فم داود النبي (مزمور ١١٨) كان يقصد أنه سيعيد بناء خيمة داود الساقطة، ويرد مجد إسرائيل.

ولكن رُفِض اليهود، وبعد قيامة المسيح تأكّد أنه حجر الزاوية إذ صارت القيامة هي العمود الفقري للمسيحية «هذا هو: الحَجَرُ الّذي احتَقَرتُموهُ أيُّها البَنّاؤونَ، الّذي صارَ رأسَ الزّاويَةِ» (أعمال ٤:١١)، ويقول معلمنا بولس: «مَبنيّينَ علَى أساسِ الرُّسُلِ والأنبياءِ، ويَسوعُ المَسيحُ نَفسُهُ حَجَرُ الزّاويَةِ» (أفسس ٢:٢٠)، وكذلك القديس بطرس: «فلكُمْ أنتُمُ الّذينَ تؤمِنونَ الكَرامَةُ،

وأمّـا للّذيـنَ لا يُطيعـونَ، «فالحَجَـرُ الّـذي رَفَضَـهُ البَنّاؤونَ، هو قـد صارَ رأسَ الزّاويَـةِ»» (بطرس الأولى ٢:٧).

لقد اعتبـر اليهـود هـذا الحجـر – الذي هو المسـيح – حجر عثـرة، فأرادوا رفعـه مـن طريقهـم الشـرير، وقـد أشـار الـرب إلـى أن الهيـكل الـذي رفضـوا حجـر الزاويـة فيـه سـيُهدَم عن آخره، كما قُـرِن رفضه كصاحب الكرم برفض حجـر الزاويـة، والمرفـوض فـي القديم صار أسـاس الجديد.

«وَلَمَّا سَـمِعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِـيُّونَ أَمْثَالَهُ، عَرَفُوا أَنَّهُ تَكَلَّمَ عَلَيْهِمْ. وَإِذْ كَانُـوا يَطْلُبُـونَ أَنْ يُمْسِـكُوهُ، خَافُوا مِـنَ الْجُمُوعِ، لأَنَّـهُ كَانَ عِنْدَهُمْ مِثْلَ نَبِـيٍّ» (آية ٤٥، ٤٦).

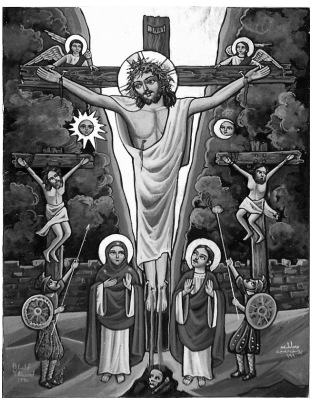

طوبى لذلك العبد

«اسْهَرُوا إِذًا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ فِي أَيَّةِ سَاعَةٍ يَأْتِي رَبُّكُمْ. وَاعْلَمُوا هذَا: أَنَّهُ لَوْ عَرَفَ رَبُّ الْبَيْتِ فِي أَيِّ هَزِيعٍ يَأْتِي السَّارِقُ، لَسَهِرَ وَلَمْ يَدَعْ بَيْتَهُ يُنْقَبُ، لِذلِكَ كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا مُسْتَعِدِّينَ، لأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ لاَ تَظُنُّونَ يَأْتِي ابْنُ الإِنْسَانِ، فَمَنْ هُوَ الْعَبْدُ الأَمِينُ الْحَكِيمُ الَّذِي أَقَامَهُ سَيِّدُهُ عَلَى خَدَمِهِ لِيُعْطِيَهُمُ الطَّعَامَ فِي حِينِهِ؟. طُوبَى لِذلِكَ الْعَبْدِ الَّذِي إِذَا جَاءَ سَيِّدُهُ يَجِدُهُ يَفْعَلُ هكَذَا!. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ يُقِيمُهُ عَلَى جَمِيعِ أَمْوَالِهِ» (متى ٢٤:٤٢-٤٧).

هذا هو واحد من أحاديث الاستعداد الأربعة قبل الصليب: مَثَل العبد الأمين، ومَثَل العذارى، ومَثَل الوزنات، ثم الحديث عن المكافاة الأبدية «تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي، رِثُوا..» (مت ٢٥:٣٤).

الله دعانا **أحرارًا** «لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيدًا بَلْ أَحِبَّاءَ» (يوحنا ١٥:١٥)، **وأبناء** «ثِقْ يَا بُنَيَّ» (متى ٩:٢)، **وأخصاء** «خَاصَّتِي» (يوحنا ١٠:١٤)، **وإخوة** «قُولاَ لإِخْوَتِي» (متى ٢٨:١٠)، **وأحباء** «أَقُولُ لَكُمْ يَا أَحِبَّائِي: لاَ تَخَافُوا مِنَ..» (لوقا ١٢:١٤).. ولكنه نبّهنا إلى أن هذه هبة منه وليست حقًا، فأشار أكثر من مرة إلى العبد الأمين الحكيم، وسمّى أنبياءه عبيدًا «عَبِيدَهُ الأَنْبِيَاءَ» (رؤيا ١٠:١٧). والقديس بولس يفخر أنه «عَبْدُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ». وصرّح الرب أنه إن فعلنا كل البر فنحن «عَبِيدٌ بَطَّالُونَ» (لوقا ١٧:١٠) إنما فعلنا ما قد أُمِرنا به. والله جعلنا له أبناء بالتبنّي أي هبة منه، وقال إن العبد

لا يعرف مشيئة سيده ولكن الابن يبقى إلى الأبد. وعاتب القديس بولس الذين يدينون، معتبرًا أن من ندينهم هم عبيد لمولاهم الله، وهو مسئول عنهم.

وتحدث الرب عن الوكيل، وكيف يودع السيد ثقته فيه، فصار العبد يمثله وأعطاه سلطانًا ومالًا وعرضًا، مثلما وَكّلَ فرعون يوسف على كل بيته، ومثلما فعل السيد مع وكيل الظلم. والعبد الأمين يتوخّى الأمانة دون رقيب، ولا يسيء إلى سيده الذي وكّله على بيته، ولا يكتفي بأنه غير مدين من سيده أو من حوله، وإنما أن يكون أمينًا أمام نفسه وأمام الله الذي يراقبه «كَيْفَ أَصْنَعُ هذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأُخْطِئُ إِلَى اللهِ؟» (تكوين ٣٩:٩). إن الصفة التي يشترطها كل صاحب بيت وصاحب عمل فيمن يتقدمون للعمل معه هي الأمانة، والعبد الحكيم هو المدبّر، يعرف كيف يمتصّ وكيف يكسب وكيف يدافع عن سيده، كما أن الحكمة سينتج عنها كفاءة في العمل وحلولًا لمشاكل محتملة. هكذا العبد الحكيم...

وشُبّه مجيء المسيح بغتة باللص وبالعريس، فاللص يباغت فريسته وعن ذلك قال الرب: «اسْهَرُوا إِذًا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ فِي أَيَّةِ سَاعَةٍ يَأْتِي رَبُّكُمْ. وَاعْلَمُوا هذَا: أَنَّهُ لَوْ عَرَفَ رَبُّ الْبَيْتِ فِي أَيِّ هَزِيعٍ يَأْتِي السَّارِقُ، لَسَهِرَ وَلَمْ يَدَعْ بَيْتَهُ يُنْقَبُ» (متى ٢٤:٤٢-٤٣). كما شُبّه بالعريس «وَأَنْتُمْ مِثْلُ أُنَاسٍ يَنْتَظِرُونَ سَيِّدَهُمْ مَتَى يَرْجِعُ مِنَ الْعُرْسِ...» (لوقا ١٢:٣٦). فلو أعلن الرب أن مجيئه سيتأخر لتهاون الناس، ولو قال إنه وشيك لارتعب الناس وتركوا مسئولياتهم وتوقفت الحياة، ولكن إخفاء الوقت كان بتدبير من الله ليكون الناس مستعدين دائمًا. العجيب أن الناس إذا تهاونوا في البداية قد يصبح التهاون عادة والتكاسل اتجاهًا، فلا يقدرون أن ينشطوا لاحقًا حتى لو أرادوا، مثل الذي يفقد المناعة، ومثل الذي يدعي أنه واعٍ للخمر ولكنه حالما يسكر فلا يعود يملك إرادته.

متى جاء المسيح –وهو سيأتي بَغْتَةً– ماذا يمكن أن يجدك فاعلًا؟ هل ما يندى له الجبين؟ هل في خطية؟ في خيانة؟ في تراخٍ؟ في مكان غير لائق؟ أتذكر قصة وردت عن كل من الأنبا بيمن والأنبا أور، إذ كانا يبيّضان قلايتهما توقفا فجأة، ونظر أحدهما للآخر ثم قالا: تُرى لو أتى المسيح الآن كيف سيجدنا؟! ولما قالا هذا تركا ما بيدهما متجهين إلى مخدعهما.. وأنت أين يجدك المسيح ومع مَنْ، وكيف يجدك...؟

إذا فاجأك الله فهل يجدك ساهرًا مستعدًا أم متغافلًا؟ قال القديس موسى الأسود «اسهر لئلا يفاجئك بمجيئه فيجدك غير مستعد»، وقال الرب في سفر الرؤيا «طُوبَى لِمَنْ يَسْهَرُ وَيَحْفَظُ ثِيَابَهُ» (رؤيا ١٦:١٥)، ويصلي كثيرون لله قائلين «لا تأخذني في ساعة غفلة»، وداود النبي يقول «ثَابِتٌ قَلْبِي يَا اَللهُ، ثَابِتٌ قَلْبِي» (مزمور ٥٧:٧).

إذا فاجأك شخص ما: ماذا سيجدك تفعل؟ عاريًا، أم تغني؟ أم تخطئ؟ أم تسلك بشكل طبيعي؟ لقد تسلمنا أن وزن الشخص الحقيقي يكون وهو بمفرده وليس وهو أمام الآخرين، فقد يتوخّى الإنسان الحذر وهو في حضرة الآخرين، أو كما يُقال إنه يبدو في ثياب أكبر من حجمه، ولذلك أتذكر أن أحد آباء الرهبنة وهو القديس تادرس الفرمي، طلب إلى تلميذه قائلًا: «إن أتى إنسانٌ يريد رؤيتي، فلا تقل له شيئًا وعظيًا، بل إن كنتُ آكل، فقل له: إنه يأكل، وإن كنتُ نائمًا، فقل له: إنه نائم. وإن كنتُ أصلي، فقل له: إنه يصلي».

واذا جاء الرب هل يجد الخادم هكذا؟ فقد ائتمنه على مخدومين، سواء كان أبًا أسقفًا أو كاهنًا أو خادمًا، وسيطلب منه حساب الوكالة، هكذا فاجأ السيد وكيله في مثل وكيل الظلم.. يمكن أن يسأله كم افتقدت وكم عالجت وكم ناولت وكم سددت احتياجات؟ هناك أشخاص لهم مواعيد ومواقف فقط،

وهناك أشخاص حياتهم كلها عمل، فمتى جاء سيده في أي وقت يجده ساهرًا ومستعدًا، هذا ما قصده الرب حين قال عن ذلك العبد «يعطي عبيده طَعَامَهُمْ فِي حِينِهِ».

قرأت عن الأنبا ابرآم قديس الفيوم، أنه فعل هكذا مع الخدام المنوطين بإطعام الفقراء، فقد سمع أنهم لا يعاملونهم معاملة جيدة، ومن ثَمّ تخفّى بينهم كأحد الفقراء وتأكد من سوء المعاملة بنفسه، واحتفظ بما أعطوه له من رديء الطعام ليعاتب به الخدم فيما بعد، ولما أنكروا أطلعهم على الحقيقة، وفي هذا لا ينطبق عليهم «طوبى لذلك العبد الذي يعطي عبيده طعامهم في حينه»...

وجاء في سيرة القديس باخوميوس أب الشركة أنه وبينما كان يستعد لسفر طويل، كلّف راهبًا بالاهتمام بإخوته من جهة إعداد الطعام لهم وفقًا لبرنامج محدّد، فلما عاد من السفر اشتكى له البعض من أن الراهب المُكلَّف لم يفعل ما أمره به، فاستحضره من ثَمّ واستفسر منه عن ذلك، فأجابه بأنه إنما أراد أن يتعلم الرهبان النسك فيكتفون بالبقول والخبز اليابس، بينما يستثمر هو وقت إعداد الطعام في عمل اليد وهذا ينفع الدير بثمنه! فلما سمع الأب الكبير ذلك طلب من الراهب أن يحضر جميع ما أتمّه من عمل اليد، وأمام الجميع قام بإحراق السلال جميعها، ثم التفت إلى الراهب وقال له إنك بما فعلته قد أبطلت الثمرة الطبيعية التي للنسك، ومن ثَمّ لا ينطبق على الراهب هنا «طوبى لذلك العبد الذي يعطي عبيده طعامهم في حينه».

ومن أمثلة الذين جاء سيدهم ولم يجدهم يفعلون هكذا (كما كلفهم) وكيل الظلم، فقد تركه سيده ليهتم بالأرض من جهة، ويرعى مصالح الأجراء من جهة أخرى، فأهمل الأرض بينما ثقّل يده على الفلاحين المساكين، فلما وشوا به باغته السيد وعاتبه، وبدلًا من أن يقول له: طوبى لك، قال له: «ما هذا الذي أسمعه عنك؟ إعطِ حساب وكالتك لأنك لا تكون وكيلًا بعد»، وهكذا طُرِد من الوكالة.

المشـرف «السـوبر فايـزر supervisor»: أو المراقـب، وهـو يفاجـئ العامليـن معـه بيـن وقت وآخر، مثل مندوبي الدعايـة والذين يعتمدون على الثقة فـي تعاملهـم، لأنهـم لـن يراقبـوه فـي كل زيـارة، بل يعتمـدون علـى التقارير التي يرفعها العامل لرئيسـه، فإذا اكتشـف الرئيس عدم صدق المندوب ولو مرة واحدة وعـن طريـق الصدفـة، فإنـه قـد يقيلـه، والسـبب أنـه مـن المحتمل أن يكـون هذا نهجـه طالمـا كذب ولم يسـتأذن أو يسـتعفي.

من هنا فقد يفاجئ المسئول موظّفيه دون سـابق إنذار، حتى لا يسـتعدوا عنـد مجيئـه فقـط، وإنمـا يكونوا أمناء ومسـتعدين دائمًا، مثلمـا كان بعض الملوك يفاجئـون الذيـن يولّونهـم علـى النـاس حتـى يطمئنوا أنهـم لا يظلمونهـم أو يثقّلون عليهـم بالضرائـب والمظالـم وغيرها، فيتخفّى الحاكم بين الناس ليرى بنفسـه كيف يعاملهـم الوالـي المحلـي. لقد كان الرعاة في كثيـر من الأحيان يأكلون ويمرحون، وقبل مجيء صاحب البيت يحسّنون سيرتهم مع العبيد ليتلافوا الشكوى ضدهم.. والتاريخ مليء بعشرات القصص الطريفة والمأسوية في هذا الإطار.

أمّـا إذا عـاد الـزوج ليجـد زوجتـه فـي انتظـاره والمسكن نظيفًـا مرتبًـا، والطعـام مُعـدًا، والأولاد فـي هيئـة نظيفـة، اسـتذكروا دروسـهم وتناولـوا طعامهم، لا شـك أن ذلك يسـعده ويسـتحق المكافأة (لقد وجدها تفعل هكذا..)، بعكس لو جـاء ليجدهـا تثرثـر مـع الجيـران، أو نائمة، أو أمام التلفزيـون، أو تهتم بمظهرها فقـط علـى حسـاب مسئولياتها الأخـرى. أو تعـود ربّـة البيـت لتجـد خادمتها وقد أهملـت الأولاد لتحكـي مـع خادمـة أخـرى أو شـخص تعرفـت عليـه، هـذه جـاء سـيدها ليجدهـا لا تفعـل هكذا...

حـدث مثـل ذلـك مـع نابوليـون بونابـرت، فحيـن كان يطوف بيـن الجنود فـي حراسـاتهم ذات ليلـة أن وجـد ضابطًـا نائمًا وإلى جواره جندي سـاهر متيقظ، فانحنـى القائـد علـى الضابط بهدوء وسـحب الرتبة من علـى كتفه ثم علّقها على

كتف الجندي، فلما استيقظ الضابط وفوجئ بما حدث اتجه إلى القائد الكبير ليعتذر له، فقال نابوليون جملته الشهيرة إن «الجندي الساهر أولى بالرتب من الضابط النائم».

وفي حراسات الهيكل كانت هناك كتيبة من الجنود تابعة للهيكل يشرف عليها رئيس الكهنة، فإذا وُجِد جندي ليس في مكان حراسته فإنه يُعاقَب بأن تُحرَق ملابس خدمته في وجود بقية الكتيبة ويُعفى من الخدمة ويُعاقَب، وربما كان هناك إشارة إلى ذلك فيما ورد في سفر الرؤيا «هَا أَنَا آتِي كَلِصٍّ! طُوبَى لِمَنْ يَسْهَرُ وَيَحْفَظُ ثِيَابَهُ لِئَلاَّ يَمْشِيَ عُرْيَانًا فَيَرَوْا عُرْيَتَهُ» (رؤيا ١٦:١٥). من هنا يأتي التفتيش المفاجئ، ومن هنا يأتي شعار الكشافة «كن مستعدًا».

ما يوجد فيه الإنسان يؤخذ: نبّه السيد المسيح أنه عند خراب الهيكل سيؤخذ الواحد ويترك الآخر، مثل اللتين تطحنان على الرحى كذلك والذي في الحقل، وغيرها «كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الإِنْسَانِ. لأَنَّهُ كَمَا كَانُوا فِي الأَيَّامِ الَّتِي قَبْلَ الطُّوفَانِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ نُوحٌ الْفُلْكَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ الطُّوفَانُ وَأَخَذَ الْجَمِيعَ، كَذلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ابْنِ الإِنْسَانِ. حِينَئِذٍ يَكُونُ اثْنَانِ فِي الْحَقْلِ، يُؤْخَذُ الْوَاحِدُ وَيُتْرَكُ الآخَرُ. اِثْنَتَانِ تَطْحَنَانِ عَلَى الرَّحَى، تُؤْخَذُ الْوَاحِدَةُ وَتُتْرَكُ الأُخْرَى. اِسْهَرُوا إِذًا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ فِي أَيَّةِ سَاعَةٍ يَأْتِي رَبُّكُمْ» (متى ٢٤:٣٧-٤٢).

وسمعت عن أب أنه في كل مرة يخرج يضع في قلبه قبل الخروج إنه لن يعود مجددًا، كان له في نفسه حكم الموت. سأل أخٌ الأب شيشوي قائلًا: «ماذا أفعلُ يا أبتاه، فقد سقطتُ»؟ قال له الشيخُ: «انهض أيضًا». قال الأخُ: «نهضتُ ورجعتُ وقعت». فأجابه الشيخُ: «انهض أيضًا». فقال الأخُ: «إلى متى أيها الأب»؟ قال له: «إلى أن نؤخذ، إما في الخير وإما في السقطةِ، لأن الإنسانَ فيما يوجد فيه يؤخذ».

وقال آخر «لا يوجد شيءٌ أصعب من العادةِ الرديئةِ، إذ يحتاجُ صاحبُها في سبيلِ قطعِها إلى زمانٍ وتعبٍ كثير، أما التعبُ فهو في متناول الكثيرين، ولكن الزمانَ الذي يحتاج إليه فما أقلَّ من قضاه حتى النهايةِ، لأن أكثرَ أصحابِها اختطفهم الموتُ قبل تمامِ زمانِ قطعِها، والله وحدُه هو الذي يعلمُ كيف يدينهم».

وجاء في الأساطير أن ثلاثة شياطين جاءوا إلى أرضنا ليكملوا تدريبهم، قال الأول لرئيسه: «سأكرز للناس بأنه لا إله»، فرد عليه بأنهم لن يصدقوه، وقال الآخر: «سأكرز أنه لا جهنم»، فأجابه هم يعرفون أن هناك جهنم، وأما الثالث فقال: «سأكرز لهم بأنه هناك متسع من الوقت «سيدي يبطيء قدومه»»، فأجابه: «اذهب فإنك ستحصد ألوف ألوف...»

تصوروا في المقابل: أب لم يبخل على ابنه بأي شيء، كل طلباته مجابة، سواء بالدروس الخاصة أو الثياب والحلوى والهدايا والجو المهيّئ، والأموال الطائلة والأعصاب التالفة، فلما دخل على ابنه حجرته فلم يجده يستذكر دروسه، وإنما يلعب أو يدردش مع أصدقائه على مواقع التواصل الاجتماعي أو يحادث آخرين بالتليفون، بماذا يشعر ذلك الآب: «ولم يجده يفعل هكذا..».

تليفونك–صفحتك–دولابك–درجك: ماذا لو تم مفاجأة هذه، إن رسالة واحدة تجدها زوجة أو زوج على تليفون الآخر كفيلة بأن تهدم أسرة وتجرّ إلى المحاكم، لست أقول أن تخطئ وتكون حريصًا فلا تنكشف خطيتك، كلّا! وإنما لا يكن هناك ما تُلام بسببه أصلًا، لا أمام الله ولا أمام الناس، أو يتسبّب في مشكلة لك. لتكن صفحاتك ناصعة وشريفة، لا صور ولا مكالمات ولا ما تستحق اللوم بسببه. أتذكر أن شخصًا توفي فأخذ صديقه الجهاز الخاص به ومحا منه كل ما يُنسب له فضيحة. وأتذكر أن شابًا نبيلًا آخر بينما كان يكفّن

رجـلًا مسـنًا، بحـث فـي شـقته ووجد أشـياء قد تسـيء إلى تاريخ الرجـل، ومن ثَمّ تخلـص منهـا دون أن يعرف أحد.

أرى أن يمـارس الإنسـان حياتـه بشـكل لائـق، وليـأتِ المراقـب أيًّـا كان اسـمه أو صفته، ليجده شـريفًا نبيلًا مسـتعدًا.. بل ليسـلك الإنسـان حسـبمًا يليق دون التحسُّـب لمباغتـة أو مراقبـة، حتـى لـو لـم يـزره أو يفاجئه أحـد، لأنه يوجد البعض ممن لا رقيب عليه ولا مسئول فوقه، ولكن الضمير –ولا سيمّا المرتشد بالـروح القـدس– هـو الرقيـب الدائـم.. كمـا أن هنـاك محاسـبة فـي النهايـة مـن الله، وهنـاك عبارتـان فـي غايـة الأهميـة فـي هـذا الصـدد سـوف نسـمعهم يـوم الدينونـة: أمّـا «تَعَالَـوْا إلـيّ... رِثُـوا الْمَلَكُـوتَ الْمُعَـدَّ»، وإمّـا «ابعـدوا عنـي إلـى النـار الأبدية...».

أخيرًا.. كن سـاهرًا وشـدد ما بقي: إن كنت قد أضعت سـني حياتك في أمـور بعيـدة عـن خلاصـك، وتسـرّبت منـك السـنون كما يتسـرب المـاء من بين الأصابـع، «كُـنْ سَـاهِرًا وَشَـدِّدْ مَـا بَقِـيَ، الَّذِي هُوَ عَتِيـدٌ أَنْ يَمُوتَ، لأَنِّـي لَمْ أَجِدْ أَعْمَالَـكَ كَامِلَةً أَمَـامَ اللهِ» (رؤيا ٣:٢).

لا أعرفك

«لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ. ٢٢كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!» (متى ٧:٢١-٢٣).

لا أَعْرِفْكُمْ:

كلمة لها وقع الصاعقة، لا سيمّا إذا سمعها شخص كان يظن أن الباب سيُفتَح له على مصراعيه، لا سيّما وأن الذي يقولها لم نعتد منه التنكُّر والرفض والغضب، بل تعبيرات مثل: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ... وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا... وجئت لأخلّص ما قد هلك...».

إن كلمة لا أَعْرِفْكُمْ كلمة لا ردّ لها، وتساوي في وقعها تعبير «قدْ أُغْلِقَ الْبَابُ»، والعجيب أن يقولها الله الحنون طويل الأناة، القابل الكل والساعي نحو الكل.. ولكن في هذه الحالة هو ديّان عادل، مثلما كان خلال حياتنا الأرضية محبًا غفورًا. رسم أحدهم الموقف من خلال لوحة يظهر فيها السيد المسيح وهو يولي ظهره لذلك المرفوض، ويذكّرني ذلك بالهيكل الذي وصفه الرب مرارًا بأنه بيته وبيت أبيه وأنه بيت صلاة «بَيْتِي بَيْتَ صَلاَةٍ... بَيْتِ أَبِي بَيْتَ صَلاَةٍ...»، ولكنه عند محطة معينة صرّح أنه لا يعرف «ذلك البيت» وخرج منه «أعطاه ظهره» وهو يصدر حكمه القاسي

«هُوَذَا بَيْتُكُمْ يُتْرَكُ لَكُمْ خَرَابًا...»، إنها تذكرني بشخص استنفذ كل فرصه ولم يتبقَّ إلّا إصدار الحكم.

تذكرني بما يقوله شخص لآخر محذِّرًا: إذا جئتني سأقول لك لا أَعْرِفُكُمْ.

تذكرني بعبارة أخرى لا تقل خطورة ألا وهي «وَلكِنْ مَنْ يُنْكِرُنِي قُدَّامَ النَّاسِ أُنْكِرُهُ أَنَا أَيْضًا قُدَّامَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ» (متى ١٠:٣٣)، وهي عبارة تقابل عبارة «لا أَعْرِفُكُمْ».

من جهة أخرى لا أعرف لماذا يستنكر الناس عدل الله ودينونة الله وغضبه، فعند أي حديث عن نظام أو عقوبة أو التزام، يشهرون سلاح المحبة وبدون حكمة، فالله المحب هو أيضًا عادل، والله الذي ترفّق بالمساكين والخطاة، هو ذاته الذي وبّخ المخالفين، وهو الذي حذّر من النار والدينونة، وهو الذي وضع طريقي الخير والشر وطلب منا أن نختار الحياة لنحيا «لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ يَوْمُ غَضَبِهِ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَسْتَطِيعُ الْوُقُوفَ؟» (رؤيا ٦:١٧).

والمعرفة المقصودة هنا ليست معرفة البسيطة، كلّا! وإنما القبول. وقد ارتبط إنكار المعرفة هنا بغلق الباب كما في قول الرب: «مِنْ بَعْدِ مَا يَكُونُ رَبُّ الْبَيْتِ قَدْ قَامَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ، وَابْتَدَأْتُمْ تَقِفُونَ خَارِجًا وَتَقْرَعُونَ الْبَابَ قَائِلِينَ: يَارَبُّ، يَارَبُّ! افْتَحْ لَنَا. يُجِيبُ، وَيَقُولُ لَكُمْ: لاَ أَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ!... فَيَقُولُ: أَقُولُ لَكُمْ: لاَأَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، تَبَاعَدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي الظُّلْمِ!» (لوقا ١٣:٢٥،٢٧)، «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُنَّ: إِنِّي مَا أَعْرِفُكُنَّ» (متى ٢٥:١٢).

وعندما نصرّح بأن فلانًا لا يعرف الله، فإننا نقصد أنه لا يحيا معه وله، وأن صفات الله لا تظهر فيه، يعرفه بأن يخافه ويتقيه، فإذا رأى الناس شخصًا شريرًا قالوا عنه إنه لا يعرف الله، وإذا كان هناك شخص لا يحب الآخرين قالوا عنه لا يعرف الله «وَمَنْ لاَ يُحِبُّ لَمْ يَعْرِفِ اللهَ، لأَنَّ اللهَ مَحَبَّةٌ»

(١يوحنا ٤:٨)، «أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ» (١يوحنا ٤:٧). ومن تظهر فيه مفاعيل القيامة فهو يعرف الله وقوة قيامته «لأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ آلاَمِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ» (فيلبي ٣:١٠).

هناك ما يُسمى بقوائم المرفوضين (الذين لن يرثوا الملكوت) «أَمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الظَّالِمِينَ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ؟ لاَ تَضِلُّوا: لاَ زُنَاةٌ وَلاَ عَبَدَةُ أَوْثَانٍ وَلاَ فَاسِقُونَ وَلاَ مَأْبُونُونَ وَلاَ مُضَاجِعُو ذُكُورٍ، وَلاَ سَارِقُونَ وَلاَ طَمَّاعُونَ وَلاَ سِكِّيرُونَ وَلاَ شَتَّامُونَ وَلاَ خَاطِفُونَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ» (١كورنثوس٦:٩،١٠)، وفي الرسالة إلى غلاطية «.. حَسَدٌ قَتْلٌ سُكْرٌ بَطَرٌ، وَأَمْثَالُ هذِهِ الَّتِي أَسْبِقُ فَأَقُولُ لَكُمْ عَنْهَا كَمَا سَبَقْتُ فَقُلْتُ أَيْضًا: إِنَّ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ مِثْلَ هذِهِ لاَ يَرِثُونَ مَلَكُوتَ اللهِ» (غلاطية ٥:٢١).

ولكن الرب يشير هنا إلى أُنَاسَ لم يبد عليهم أنهم أشرار، بل أبرار وخدام وكارزون ولهم صورة التقوى، ليس ذلك فحسب وإنما تبرّعوا بكل ما يملكون وأفنوا أجسادهم في الخدمة، ومع ذلك لم يفدهم ذلك بشيء «وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي، وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ، وَلكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ، فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئًا» (١كورنثوس ١٣:٣).

من بين هذه الشرائح الذين ارتكبوا جرائم باسمه: الذين باسم النظام والتنسيق أعثروا البعض وضايقوا البعض، والذين تفوق النظام عندهم على الإنسان نفسه، حفظوا السبت وفقدوا الإنسان الذي جُعِل السبت لأجله. الذين من أجل المحافظة على الأموال جرحوا بعض الفقراء وأهانوهم، والذين من أجل تكبير الرصيد في البنك حرموا كثيرين من الحصول على المعونة. والذين اهتموا ببيت الرب أكثر من رب البيت وأولاده، والذين زينوا الكنائس بالأحجار الكريمة إكرامًا لله بينما فقدوا الشعب من الداخل.

الذين يقتلون المجدِّف والمتطاول على الله رغم طول أناة الله، كثيرين قُتِلوا على مذبح الله، ولكنه بذبائح مثل هذه لا يُسَر الله.

وهل يمكن لشخص أن يُرفَض رغم رهبنته وكهنوته وتكريسه؟ بالطبع ممكن، فإن الآباء يقولون إت بعضًا ممن نجوا من بحر العالم هلكوا في ميناء الرهبنة، وكما قال يوحنا المعمدان للفريسيين: «وَلاَ تَقْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا» (متى ٣:٩)، فوارد أن يخلص البسطاء ويهلك بعض من المخضرمين في الكنيسة، بل لقد صرّح بولس الرسول بأنه يخشى بعدما كرز لكثيرين وأسس الكنائس أن يصير هو نفسه مرفوضًا «بَلْ أَقْمَعُ جَسَدِي وَأَسْتَعْبِدُهُ، حَتَّى بَعْدَ مَا كَرَزْتُ لِلآخَرِينَ لاَ أَصِيرُ أَنَا نَفْسِي مَرْفُوضًا» (١كورنثوس ٩:٢٧).

بل وحتى على مستوى الأسرة وعلى مستوى العمل، قد يضيّع شخص ما عمره كله دون جدوى، يجري ويعمل ويكسب، وفي النهاية يقول له الرب: لا أعرفك. ويحدث مع الأب والأم بعد أن يفعلا كل شيء لأولادهما، يقولون لهما الأبناء لا نعرفكم! وقد لا يقولونها بالفم وإنما بالإهمال والتنكُّر والانقطاع عنهما، ونقابل يوميًا مثل هذا النوع من الأبناء، ونكتشف أن الآباء ضيعوا حياتهم وجهدهم، وفقدوا حتى أولادهم.

عبادة شكلية: من بين الذين سيرفضهم الرب الذين يقدمون عبادة شكلية وربما لخداع البسطاء، مثل الذين يعملون في الغيبيات ويتظاهرون بالقداسة وبعضهم يستعمل المزامير، ومثل الذين يتظاهرون بالتقوى والورع وبعضهم شمامسة وخدام وبعضهم له حيثية في الكنيسة وبعضهم يقضي أغلب وقته في الكنيسة... كيف يهلك إنسان داخل الخدمة؟ والمتاجرون بالدين، والذين يوهمون الآخرين بقداستهم، ولكن المعجزة تتم على أساس إيمان المتلقّي أكثر من برّ المصلي.

وهناك من لا يخطئ خطايا واضحة، وإنما وردة بلا رائحة، ماء مرسوم على الجدران، مثل الكلمة البطالة، حتى وإن كانت غير ضارة إلا أنها غير نافعة وتستحق العتاب. الذي أضاع وقته، والذي تقاعس عن عمل الخير، والذي لم يخدم، والذي عاش عالة ولم يعمل، والذي كان مُستهلِكًا لا باذلًا، وغيرهم...

أتذكر أن القديس بولس الرسول اتخذ موقفًا من خاطئ كورنثوس الذي اتخذ من زوجة أبيه امرأة، وأنزل به عقوبة كبيرة، ولكنه بعد مرور وقت قصير عفا عنه وأمر بتمكين المحبة له؛ وهكذا في العقوبات الكنسية، إننا كثيرًا ما نتكلم عن اللطف والاحتواء ونبكت الخدام إذا استخدموا الشدة، ولكن الشعب في المقابل لم يعد يحتمل التوبيخ ويقابل العتاب بالعنف ويخلط بين المحبة والتهاون والجدية والرفض، ولكن الذي يتهاون ويرفض التأديب والعتاب الذي لخلاصه بل وقد يطلب ألّا يبكتوه، هذا سيُفاجَأ يوم الدينونة بالرفض والغضب وعدم الرحمة...

الذي لا يعرف الله ههنا، فلن يعرفه الله هناك. من ينكره، سينكره. ومن ينشغل عنه، سيولي له ظهره. «وَبِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ».

«فَعَمَلُ كُلِّ وَاحِدٍ سَيَصِيرُ ظَاهِرًا لأَنَّ الْيَوْمَ سَيُبَيِّنُهُ. لأَنَّهُ بِنَارٍ يُسْتَعْلَنُ، وَسَتَمْتَحِنُ النَّارُ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا هُوَ» (١كورنثوس ٣:١٣).

تعالوا إليّ .. ابعدوا عني

«ومَتَى جاءَ ابنُ الإنسانِ في مَجدِهِ وجميعُ المَلائكَةِ القِدّيسينَ معهُ، فحينَئذٍ يَجلِسُ علَى كُرسيّ مَجدِهِ. ويَجتَمِعُ أمامَهُ جميعُ الشُّعوبِ، فيُمَيّزُ بَعضَهُمْ مِنْ بَعضٍ كما يُمَيّزُ الرّاعي الخِرافَ مِنَ الجِداءِ، فيُقيمُ الخِرافَ عن يَمينِهِ والجِداءَ عن اليَسارِ. ثُمَّ يقولُ المَلِكُ للّذينَ عن يَمينِهِ: تعالَوْا يا مُبارَكي أبي، رِثوا الملكوتَ المُعَدَّ لكُمْ منذُ تأسيسِ العالَمِ... ثُمَّ يقولُ أيضًا للّذينَ عن اليَسارِ: اذهَبوا عَنّي يا مَلاعينُ إلَى النّارِ الأبديَّةِ المُعَدَّةِ لإبليسَ ومَلائكَتِهِ... فيَمضي هؤُلاءِ إلَى عَذابٍ أبديٍّ والأبرارُ إلَى حياةٍ أبديَّةٍ» (مَتَّى ٢٥:٣١-٤٦).

الأحاديث والأمثال الواردة في قراءات يوم الثلاثاء تدور جميعها حول الاستعداد ليوم الدينونة، وأمّا الجزء المرتبط بهذا النص فهو المعروف اصطلاحًا بـ«بي قد فعلتم». وجدير بالملاحظة أن العطاء على مختلف المستويات في حدّ ذاته لا يخلّص، كما أن الإمساك لا يُهلك، ولكن العطاء والرحمة كما يقول القديس ذهبي الفم يعبّران عن قلب محب قبل الخلاص، مهتمًا بالكنز السمائي أكثر من الاهتمامات الأرضية، وإلّا لكان بإمكان الأغنياء أن يتمتعوا بالأرضيات والسمائيات معًا عن طريق رشوة الله ببعض العطايا.

تَعَالَوْا... ابعدوا...

أهم عبارتين يمكن أن نسمعهما هنا ونحن على الأرض: الأولى هي **«الله يحاللك»**، وتأتي بعد التوبة والاعتراف، ويشعر من يسمعها بسعادة

غامرة إذ غُفرت لـه خطاياه، أما أصعب عبارة ممكن يسمعها هي «**وَأَغْلَقَ الْبَابَ**»، يقول السيد المسيح: «مِنْ بَعْدِ مَا يَكُونُ رَبُّ الْبَيْتِ قَدْ قَامَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ، وَابْتَدَأْتُمْ تَقِفُونَ خَارِجًا وَتَقْرَعُونَ الْبَابَ قَائِلِينَ: يَارَبُّ، يَارَبُّ! افْتَحْ لَنَا. يُجِيبُ، وَيَقُولُ لَكُمْ: لاَ أَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ!» (لوقا ١٣:٢٥).

أما أهم عبارتين يمكن لأحد أن يسمعهما يوم الدينونة هما: تَعَالَوْا إِلَيَّ... وابعدوا عني...

هنا ولنا بعض التعليقات:

+ كم من الناس سيُغلق الملكوت في وجوههم، وكم ممن كانوا يظنون أنهم بنو الملكوت سيُرفَضون في ذلك اليوم، وكم من الناس في المقابل يظنون الآن أنهم ضعفاء غير مستحقين، ولكنهم سيُكلَّلون هناك بالمجد.

+ كم من حزين هنا ومظلوم ومُجرَّب وفقير سيفرح هناك، وكم من مستهزئ متعجرف سيخزى أمام الجميع.

+ كم من عظماء سيُلقَون في البحيرة المتقدة بالنار، وكم من مساكين مرذولين لشكلهم أو رائحتهم، سيُعوَّضون، ولنا في هذا لعازر المسكين مثلًا مقارنة بالغني، كان الغني يرفل في النعيم بينما كان لعازر مطروحًا مرذولًا، فصار ذاك يتعذب وهذا يتعزّى، إذ قد استوفى أحدهما خيراته (كرامة وغنىً وشبعًا) بينما استوفى الآخر بلاياه.

+ كم من شخص رفضهم الناس هنا، لا احترام ولا مساعدة ولا فرصة عمل ولا تقدير من أي نوع، وسيقبلهم الله يومها بكرامة، وكم من آخرين قبلوهم بسبب تزلُّفهم ورياءهم..

+ وكم من مرة صرخ له مسكين وأغلق أحشاءه دونه، والآن يقرع ولا يُفتح له، يصرخ ولا يُستجاب «لأَنَّ الْحُكْمَ هُوَ بِلاَ رَحْمَةٍ لِمَنْ لَمْ يَعْمَلْ

رَحْمَـةً، وَالرَّحْمَـةُ تَفْتَخِـرُ عَلَـى الْحُكْـمِ» (يعقوب ١٣:٢)، «وَأَمَّـا مَـنْ كَانَ لَـهُ مَعِيشَـةُ الْعَالَـمِ، وَنَظَـرَ أَخَـاهُ مُحْتَاجًـا، وَأَغْلَـقَ أَحْشَـاءَهُ عَنْهُ، فَكَيْـفَ تَثْبُتُ مَحَبَّةُ اللهِ فِيـهِ؟» (١يوحنـا١٧:٣).

+ كـم مـن شـخص ظُلِم وظـلّ مظلومًـا ومـات مظلومًـا، فلـم ينصفـه أحـد ولـم يدافـع عنـه أحـد، وأعلـن الله براءتـه وعوّضـه خيـرًا. وكـم مـن جبابـرة عاثـوا فسـادًا فـي حياتهـم، وماتوا على أسـرّتهم وكأنهم أبرار قديسـون، ولكنهم أُفتُضِحـوا هناك.

+ **تَعَالَـوْا إِلَـيَّ:** إن أعظـم مكافـأة هـي حضـن المسـيح والـذي يدعـو إليـه أخصـاءه، وكأنّـي بـه يقـول لهـم: تَعَالَـوْا إِلَـيَّ فـي حضنـي.

+ **ابعدوا عني:** وأصعب عقوبة بالتالي هي ابعدوا عني، فهم مرفوضون.

إذًا فالمكافـأة العظمـى للأبـرار هـي الوجـود فـي الحضـرة الإلهيـة، بينمـا أصعـب عقوبـة هـي الحرمـان منهـا، فالذيـن أُبعِدوا صـاروا إلى النـار الأبدية، وأمـا الذيـن قُبِلـوا فإلـى الملكـوت الأبدي.

+ إن الذيـن صَعَّـبَ عليهـم بعـض الرعـاة الدخول إلى الملكوت (كما أشـار الـرب فـي متـى٢٣)، أدخلهم الله بنفسـه، وأما الذين ظنـوا أنهم أصحاب المكان لمجـرد أنهـم أولاد ابراهيـم وبنـو الملكـوت، فقد طُـرِدوا وقيل لهـم: لا أعرفكم «فَيَقُولُ: أَقُولُ لَكُمْ: لاَأَعْرِفُكُمْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ، تَبَاعَدُوا عَنِّي يَا جَمِيعَ فَاعِلِي الظُّلْمِ!» (لوقا ٢٧:١٣).

هكذا أشبع الله الجياع خبزًا وصرف الأغنياء فارغين..

+ إن الـرب الحنـون الـذي قـال: «مَنْ يُقْبِلْ إِلَـيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا»، والذي نـادى خـلال حياتنـا على الأرض قائلًا: «تَعَالَوْا إِلَـيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَـالِ، وَأَنَـا أُرِيحُكُـمْ» (متـى ٢٨:١١)، الآن يقـول للبعـض: ابعـدوا عني..

إنـي لا أعرفكم... «فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّـي لَـمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!» (متى ٧:٢٣). والله الذي كان يبحث عن الخروف الواحد، الآن يطرد الجداء الذين صاروا عن شماله. والذي يطيل أناته الآن وما تزال يده ممدودة، سيظهر ديّانًا عادلًا، وسيعاقب كل من استنفذ كل الفرص وأغلق قلبه دون الله.

+ الذين يقرعون بعد أن أُغلق الباب يقول لهم لا أعرفكم.

+ والعجيب أن بعض ممن سيُرفَضون كانوا ضمن من كرزوا باسمه، وأكلوا وشربوا قدامه، وعلّم في شوارعهم.

+ إن تعبيريْ «تعالوا إلـيّ» و«ابعدوا عني»، هما حكم قاطع لا يقبل النقض ولا التأجيل ولا الكفالة ولا وقف التنفيذ.. هنا نسيء ويمكن أن نعتذر، ونخطئ ويمكن أن نتوب، ونبعد ويمكن أن نعود من جديد، ولكن هناك لا فرصة لذلك لأنه وقت الحساب. وأمّا تعبير «لا يُغفر له لا في هذا الدهر ولا الآتي» فيعني أنه لا مغفرة مطلقًا، وليس أن هناك كرازة في الدهر الآتي ولا مطهر بالتالي.

وفي المزمور الخمسين نقول مع داود النبي: «لاَ تَطْرَحْنِي مِنْ قُدَّامِ وَجْهِكَ»: الطرح من قدام الوجه هو رفض المُتقدِّم حتى وهو ساجد، وكأنما العظيم قد «رفس» الشخص الساجد أو «رفضه»، وجاء عن داود بخصوص أبشالوم: «لِيَنصَرِفْ إِلَى بَيْتِهِ ولا يَرَ وجهي. فانصَرَفَ أبشالومُ إِلَى بَيْتِهِ ولَمْ يَرَ وجهَ المَلِكِ» (٢صموئيل ١٤:٢٤). وفي ختام التسبحة نقول: «وأنا الخاطي أيضًا يا رب، علمني لكي أصنع توبة، يا رب لا ترذلني». وفي لحن «بي ماي رومي» للصوم الكبير نقول:

«ولا تقل لي أيضًا: إني لا أعرفك، أذهب عني أيها المُعِد للنار الأبدية. يا محب البشر الصالح، سيدي يسوع، أسألك لا تطرحني على يسارك مع الجداء الأشرار».

يسوع المسيح والمسيئون إليه

كيف احتمل المسيح المسيئين إليه من رؤساء اليهود وأتباعهم؟ أكثر من مرة يحاولون أن يصطادوه بمكر ويصادرونه، ولاحقًا يشتكون عليه أمام بيلاطس، ويتهمونه اتهامات كاذبة، وإهانات من عبيد رئيس الكهنة الذين لطموه وسخروا منه، ومن جند الرومان الذين تسلّوا به وهو في دار الولاية وتطاولوا عليه بالضرب واللطم وغيرها.. وكذلك بعض القادة كهيرودس وبيلاطس، وإن كانت إساءة بيلاطس ليست إهانة يسوع أو السخرية منه، فقد عامله كإنسان شريف، ولكنه لم يقدر على الوقوف أمام المشتكين عليه والانتصار للعدالة، بل غُلِب على أمره وضحّى به. ومن بعده هيرودس الذي كان بإمكانه تصحيح خطئه في قتل يوحنا بإنقاذ المسيح من الصلب، ولكنه تعامل بسخرية وأراد أن يتسلّى بإحدى المعجزات، ومع أن الرب كان قادرًا أن يصنع معجزة تردع هيرودس، أو يعمل شيئًا أشبه بما حدث مع التينة، ولكن المعجزات لم تكن للتسلية أو الانتقام أو التظاهر. وهكذا فإن كلا بيلاطس وهيرودس مدانان بسبب سلبيتهما وعدم دفاعهما عنه.. هكذا أساء كثيرون ليسوع مع أنه جاء ليخلصهم، فكيف احتمل التعيير والهياج لصلبه، وتحريض الجموع وتحريض الحكام بالدين تارة وبالسياسة تارة أخرى؟ وبالطبع كان يتألم كإنسان، وسلمنا كيف كبشر نغفر للمسيئين.. ولعل من أسباب مسامحة الرب:

١- لأنه يعرف ضعف البشر وهناك فرق بالطبع بينه وبينهم: فنحن لسنا كاملين، فقد نغير بعضنا من البعض الآخر الناجح، وقد نتأثر بكلام الآخرين دون تريث، وقد نفهم الأمور بشكل خاطئ أو نفسّرها تفسيرًا خاطئًا، وقد نسيء للآخرين دون قصد، وقد تكون مشاعرنا تجاه الآخرين متقلّبة، وقد لا نقصد ما نقول ممّا سبّب المتاعب، وقد نكون من النوع سهل

التأثير عليه.. هكذا قال الرب عنهم: إنهم «لا يدرون ما يفعلون»، فلم يغفر فقط لهم، وإنما التمس لهم العذر أيضًا.

٢- لأن ليسوع الناصري هدف سامٍ، ومن ثَمّ فليس هناك وقت للحزن أو العتاب أو الانتقام بالتالي، لقد جاء ليخلصنا مهما كلفه الأمر، «إِذْ كَانَ قَدْ أَحَبَّ خَاصَّتَهُ الَّذِينَ فِي الْعَالَمِ، أَحَبَّهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى» (يوحنا ١٣:١)، أي أنه كان قد قرّر أن يتمم الفداء مهما كلّفه ذلك، فماذا تعنيه مثل هذه الإهانات؟ لقد قبل أن يأخذ صورة عبد، وصار في الهيئة كإنسان.. وهكذا من أجل الأهداف السامية نحتمل بعض الضعفات، ونتوقع بعض المعوّقات، وليس من الحكمة أن نلتفت إلى النقائص.

٣- ثم وإن كان تلاميذه أنفسهم قد أساءوا إليه مرة بالخيانة ومرة بالإنكار ومرة بالهروب، فكم بالأحرى البعيدون من الرؤساء والمتربصين، مثلما يحدث أن نتعرض للابتزاز من بعض ممن حولنا، فكم بالأحرى من البعيدين، إننا نلتمس لهم الأعذار، هكذا نظر المسيح إلى بيلاطس وقال له: «لِذلِكَ الَّذِي أَسْلَمَنِي إِلَيْكَ لَهُ خَطِيَّةٌ أَعْظَمُ» (يوحنا ١٩:١١)، ولكن حتى أولئك الذين يستحقون عقوبة أكبر سامحهم المسيح وأعطاهم فرصة أخيرة عندما هتف: «إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» مذكِّرًا إياهم بمزمور ٢٢ المليء بالنبوات عن الصلب والقيامة، لعلّهم ينتبهون أنه تحدث عنه، هكذا يقول الكتاب: «بَنُو أُمِّي غَضِبُوا عَلَيَّ» (نشيد ١:٦).

٤- ليعطينا مثلًا في التعامل مع السلبيات أثناء القيام بعمل عظيم، وهو ما يُسمى بتيارات السحب: كل من يقوم بعمل عظيم لا شك أنه تواجهه ثغرات تُسمّى بـ«تيارات السحب»، مثل الاستخفاف بالعمل كما حدث مع نحميا العظيم، والتحدّي الساخر للسيد المسيح وهو مصلوب: «إن كنت أنت ابن الله فانزل عن الصليب... خلّص آخرين وأمّا نفسه فلم يقدر أن

يخلصها...». ومن بين تيارات السحب استخفاف من جاء لأجلهم بعمله الفدائي، ومع ذلك لم يأبه لذلك، وقد قلتُ للآباء الكهنة والخدام مرارًا إن دورنا ليس فقط أن نلبّي احتياجات الناس، وإنما أن نوقظ فيهم المطالبة بما يحتاجونه، قد لا يطلبون كنيسة بل وقد يقاومون إنشاء الكنيسة، وقد يبتزون في أثمان الأرض أو المباني، ولكن كل ذلك لا يقعدنا عن تحقيق احتياجاتهم! فقد لا يطلب الطفل العلاج، وقد لا يعرف كيف يطلب الطعام، أو كيف ينجي نفسه من المخاطر، وقد لا يطلب التعليم بل يكرهه، ولكن الراعي له رؤية وعليه مسئولية تجاه من يرعاهم.

٥- كما أن احتمال المسيء قد يساعد في توبته ومراجعة نفسه: فعندما نحتمل المسيء نهبه فرصة للاعتذار أو مراجعة نفسه، هذا حدث هنا مع اللص اليمين، وقديمًا مع إخوة يوسف (ويوسف يُشير إلى السيد المسيح): «وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: حَقًّا إِنَّنَا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هذِهِ الضِّيقَةُ» (تكوين ٤٢:٢١). أمّا الانتقام والتعيير فمن شأنه أن يجعل المخطئ يتصلّف، ويتمادى في العناد، أو ينكر أو يبرّر نفسه... إن اللطف الذي فيك يبكّت الشر الذي فيه، وعدم التشهير به يقوده إلى التوبة.

٦- كذلك فإن التماس العذر لمن أخطأ يفيد كثيرًا الطرفين: فالغفران في حد ذاته فضيلة ووصية تسلمناها من السيد المسيح قولًا «اِغْفِرُوا يُغْفَرْ لَكُمْ»، وعملًا بالغفران لصالبيه هنا.. ولكن الغفران أقل شيء نقدمه، أما التماس العُذر فيهدّئ من ثورة المُساء إليه، وكذلك يهدّئ من تمادى الخاطئ. وقد يختلط الأمر على البعض في أن المخطئ لن يتعلم ولن يصحح أخطاءه طالما أننا لا نعاتبه أو نلتمس له العذر، ولكن وفّر نصيحتك له لموقف آخر لا تكون أنت الطرف الآخر فيه، وحينئذ سيكون للكلام قوة وتأثير أكبر بشهادة غير مجروحة.

٧- **لعل المسيح نظر إليهم بشفقة:** «آه لو كنتِ تعلمين ما هو لخلاصكِ، ولكن قد أُخفي عن عينيكِ»، أنت كذلك اشفق على من يُهينك، ليس على سبيل الاستخفاف والسخرية، وإنما على سبيل أنه يُعاني أكثر مما يعاني المجني عليه، فكم من مرة لم يستطع الجاني أن ينام بسبب غفران المجني عليه، بينما شعر المجني عليه بالراحة والرضى لأنه احتمل الظلم ولم يقتصّ لنفسه، «كن مظلومًا لا ظالمًا، وكن مطرودًا لا طاردًا» (مار إسحق السرياني).

ختامًا: ولكن من المهم أن تفرق بين الإهانة أو الإساءة الناتجة عن أخطائك وتلك التي لا ذنب لك فيها، بل هي لتمحيصك وتزكيتك أمام الله، يقول القديس بطرس: «لأَنَّهُ أَيُّ مَجدٍ هو إِنْ كنتُم تُلطَمونَ مُخطِئينَ فتصبِرونَ؟ بل إِنْ كنتُم تتأَلَّمونَ عامِلينَ الخَيرَ فتصبِرونَ، فهذا فضلٌ عِندَ اللهِ» (١بطرس ٢:٢٠)، وقال الرب: «اُذْكُرُوا الْكَلاَمَ الَّذِي قُلْتُهُ لَكُمْ: لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ. إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ حَفِظُوا كَلاَمِي فَسَيَحْفَظُونَ كَلاَمَكُمْ» (يوحنا ١٥:٢٠).

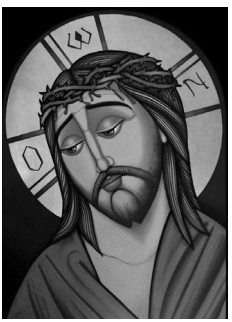

خطية الخيانة

من بين الطلبات التي نطلبها من الله هي أن ينجينا من الأعداء الخفيين والظاهرين، ولكن الأعداء الخفيين أشد خطورة من الظاهرين، ومنهم الخونة. الخيانة كريهة ومجالاتها كثيرة، مثل الخطية والوشاية ونقل الكلام والسرقة ونقل المعلومات واستغلال الصداقة والخيانة الزوجية وغيرها. وقد يستاء الناس من الشتيمة والخصام، ولكن ذلك مُحتمَل مقابل الخيانة، فهي كريهة.

وقبل أن نخوض في الحديث عن الخيانة علينا الانتباه أننا كثيرًا ما نخون الله، وأن الخطية هي خيانة له، بعد كل ما يفعله الرب معنا نتركه إلى آلهة أخرى أو شهوات، «فَقُلْتُ بَعْدَ مَا فَعَلَتْ كُلَّ هذِهِ: ارْجِعِي إِلَيَّ. فَلَمْ تَرْجعْ. فَرَأَتْ أُخْتُهَا الْخَائِنَةُ يَهُوذَا» (إرميا ٣:٧)، «تركوني أنا ينبوعَ المياهِ الحَيَّةِ، ليَنقُروا لأنفُسِهِمْ أبآرًا، أبآرًا مُشَقَّقَةً لا تضبُطُ ماءً» (إرميا ٢:١٣)، «لأَجْلِ ذلِكَ كَلِّمْ بَيْتَ إِسْرَائِيلَ يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لَهُمْ: هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: فِي هذَا أَيْضًا جَدَّفَ عَلَيَّ آبَاؤُكُمْ، إِذْ خَانُونِي خِيَانَةً» (حزقيال ٢٠:٢٧).

خيانة يهوذا:

لعلها الخيانة الكبرى في التاريخ البشري، وكانت أسبابها المال والسلطة والخوف، ثلاثون من الفضة ومركزًا طالما تمنّاه عند ملك المسيح، والخوف من قتل المسيح ومن ثَمّ يأتي الدور عليه. وقد حذّر الرب بمرارة أن «واحدًا منكم سيسلمني»، ولنتخيل منظر يهوذا وهو قادم مع الذين سيقبضون على المسيح ليدلّهم عليه... لقد اختاره الرب وائتمنه على الصندوق، ولكنه خانه، وصارت خيانته رمزًا في التاريخ، «كلامه ألين من الدهن وهو

نصال»، «أَيْضًا رَجُلُ سَلاَمَتِي، الَّذِي وَثِقْتُ بِهِ، آكِلُ خُبْزِي، رَفَعَ عَلَيَّ عَقِبَهُ!» (مز ٤١).

عخان بن كرمي:

فقد رأي عخان في الغنيمة «رداءً شنعاريًا نفسيًا ومئتيّ شاقل فضة ولسان ذهب وزنة خمسون شاقلًا، فاشتهاها وأخذها وطمرها في أرض خيمته» (يشوع٧:٢١). وقد أدت هذه الخطية، وتعدى أمر الرب بتجريم مدينة أريحا وكل ما فيها (يشوع ٦:١٧) إلى هزيمة بنى إسرائيل أمام «عاي» المدينة الصغيرة، فضرب أهل عاي منهم نحو ستة وثلاثين رجلًا «فذاب قلب الشعب.. فمزق يشوع ثيابه وسقط على وجهه إلى الأرض أمام تابوت الرب إلى المساء، هو وشيوخ إسرائيل ووضعوا ترابًا على رؤوسهم، وصلوا للرب، فقال الرب ليشوع: قم لماذا أنت ساقط على وجهك؟.. في وسطك حرامٌ يا إسرائيل، فلا تتمكن للثبوت أمام أعدائك حتى تنزعوا الحرام من وسطكم»(يشوع٧:١٠-١٣). ولما ألقى يشوع القرعة لمعرفة سبب هذه الهزيمة أصابت القرعة عخان، فاعترف بخطيته وأرسل يشوع رسلًا ووجدوا ما سرقه عخان من الغنيمة مطمورًا في خيمته، فأخذوها وأتوا بها إلى يشوع.

خيانة دليلة:

ظلّت دليلة تلحّ أربع مرات على شمشون ليخبرها بسر قوته، حتى ضجر وفقد الصبر واستسلم في النهاية، وبسبب كلماتها المعسولة فقد قوته في نهاية المطاف، لأن امرأته كانت قد اتفقت مع الفلسطينيين، وبدلًا من أن تكون له معينة صارت وبالًا عليه، وهو ولأنه ترك الله، فَقَدَ نذره وذلّ جدًا، ربما بسبب الشهوة الرديئة (قضاة ١٦:٤-٢٢).

خيانة أبشالوم:

وهو نموذج للابن الذي خان أباه بدلًا من أن يساعده، وطارده ليقتله ويغتصب منه الملك. والعجيب أن داود لم يعاقبه، بل طلب أن يترفقوا به قائلًا لعبيده: «ترَفَّقوا لي بالفَتَى أبشالومَ» (٢صموئيل ١٨:٥)، وهذا ما يفعله الله معنا... لقد خان أبشالوم أباه وغرّر بالشعب واجتمع إليه قوم بطالون، واستمال الشعب بكلام معسول أيضًا، وزجّ بالجواسيس في جميع أسباط إسرائيل، وأخذ المُلك من أبيه، وهرب داود وحاشيته من وجه ابنه ابشالوم (٢صموئيل ١٥)، ولم يكتفِ بما مَلَك بل طالت نفسه على سراري أبيه بعد أن أخذ المشورة من الخائن الآخر أخيتوفل، فنصبوا الخيمة على السطح ودخل إلى سراري أبيه وأمام جميع إسرائيل (٢صم ١٦:٢٠-٢٣).. وهو ما عُرِف اصطلاحًا بـ«مشورة أخيتوفل»؛ وانتهى الأمر بمقتله.. ومع ذلك رثاه أبوه.

في الجيش:

تُعد الخيانة في الجيش جريمة عظمى تستوجب القتل، فقد تورّط الدولة كلها في هزيمة. والتاريخ مليء بالجواسيس الذين أضرّوا ببلادهم وتسبّبوا في هزيمة الجيوش، وهناك فرق بين شخص يتجسس لحساب دولته (ونقرأ عن ابن أخت بولس حين أنذره بعزم اليهود على قتله – راجع أعمال٢٣:١٦)، وآخر يفعل ذلك لحساب دولة معادية، وهناك الجاسوس المزدوج وهو يفقد احترامهم له مع الوقت، وقد يُضطرون إلى قتله.

الخيانة داخل الكنيسة:

على مدار التاريخ، ومنذ أبشالوم وأخيتوفل، والكنيسة تواجه بعضًا من الخائنين من داخل الكنيسة. حدث ذلك أيام البدع والهرطقات حيث حرّض

البعض الملوك ضد الكنيسة. وحدث أيام الولاة العرب حين هيّج البعض الولاة والملوك ضد الأساقفة والبطريرك، مما سبب التعذيب والحبس ومرارة شديدة للكنيسة واضطهاد الأقباط. وقد تستقطب بعض المؤسسات بعض الضعفاء إمّا بسبب زلّة ممسوكة عليهم، أو عن الطريق التغرير بهم بأنهم يساهمون في صنع السلام في البلاد، والعجيب أنهم يحتقرونهم. وكثير من العاملين في الكنائس وأحيانًا بعض الكهنة يخونون الكنيسة، إمّا مع سلطات الأمن وإمّا مع آخرين في الأوقاف أو سرقة الكنيسة وأموالها أو السمسرة فيها.. الخ، أو نقل الأخبار للآخرين بقصد التوقيع.

الأنبا إيسيذورس الأسقف

من الأمثلة الهامة في الأمانة ورفض الخيانة، المتنيح العلّامة الأنبا إيسيذورس، أسقف دير البرموس الأسبق، فقد حاول كثيرون أن يستميلوه إلى كنائسهم ولكنه رفض بشدة، وظل أمينًا للكنيسة يدافع عنها رغم أنه كان مظلومًا ومجروحًا.. إنها مسالة مبدأ، فحتى لو ظُلِم إنسان فلا يخون (ائتمن من ائتمنك، ولا تخن من خانك»، أي المبدأ نفسه.. وهذا ما فعله الله معنا، وعبرّ عنه القديس بولس «إِنْ كُنَّا نَصْبِرُ فَسَنَمْلِكُ أَيْضًا مَعَهُ. إِنْ كُنَّا نُنْكِرُهُ فَهُوَ أَيْضًا سَيُنْكِرُنَا إِنْ كُنَّا غَيْرَ أُمَنَاءَ فَهُوَ يَبْقَى أَمِينًا، لَنْ يَقْدِرَ أَنْ يُنْكِرَ نَفْسَهُ» (٢تيموثاوس ٢: ١٢، ١٣). وعن الأسقف إيسيذورس يقول المتنيح الأنبا يؤانس (أسقف الغربية) إنه كان أمينًا مخلصًا للكنيسة.

سيكولوجية الخيانة:

أمّا لماذا يخون البعض، وما هي أسباب الخيانة؟ فمنها الضعف البشري الذي يقبل التهديد، ويخشى الرفض. ومنها الاستياء من المجتمع وبالتالي الانتقام منه، مثل الذي يهدر المال العام ويتلف الممتلكات العامة ويضلّل

الناس ويغشّ الأطعمة. ومنها المساومة. ومنها حب المال. ومنها حب الانتقام من البعض. ومنها التفاخر بمعرفة الكبار. كذلك بسبب عدم وجود مبادئ أو عدم الثبات على المبدأ.

نقل الكلام خيانة:

وعلينا أن نعلم أولادنا ذلك، ألّا ينقلوا كل ما يسمعونه، فقد يتسبّب ذلك في تصدُّع العلاقة بين كثيرين، مثل الزوج والزوجة. والأخطر من ذلك هو أن يأتمنك شخص على سر فتفشيه، أو تعرف سرًا عن أحد فتنقله بغرض أذيته. علينا أن نكون أمناء على كل ما نراه وما نسمعه وما نعرفه، والأصعب تحوير الكلام وعدم أمانة نقله.

الخيانة الزوجية:

ولعل أحد صور الخيانة المعروفة هي الخيانة الزوجية، وهي التي تقوِّض أركان البيت المسيحي وتؤثر سلبًا على الأولاد، ومهما كان من سوء الزوج فلا مبرِّر للخيانة والعكس أيضًا. وعلينا أن ندرك أن الاثنين اللذين صارا جسدًا واحدًا، والزنا يكسر هذا الاتحاد. كما أن الخيانة لا تنحصر فقط في الزنى بل في الحديث والاتصال وغيره. وقبل أن نعاتب الزوجة الخائنة علينا أن نسأل الزوج عن السبب والعكس. ومِن أسبابها: إهمال الزوج، وخيانة الزوج، وعدم احترامه لها.. وعدم تسديد الاحتياج ولذلك تحتوي الزوجة زوجها حتى لا يخون، وأحيانًا بسبب وجود علاقة قديمة، وبسبب غياب الزوج كثيرًا. ومن نتائجها الخطية والتشويه وتقويض العلاقة بين الاثنين وتهديد مستقبل الأطفال. وقد تكون الخيانة في الخفاء، ولكن لَيْسَ خَفِيٌّ إِلاَّ وَيُسْتَعْلَنْ. الخائن لا يحترم نفسه مع الوقت بل يحتقرها، والبعض منهم انتحر بسبب ما سببته له الخيانة.

الأسرار في حياتنا

اَلْمَزْمُورُ الثَّالِثُ وَالسَّبْعُونَ:

إنَّما صالِحٌ اللهُ لإسرائيلَ، لأنقياءِ القَلبِ. أمّا أنا فكادَتْ تزِلُّ قَدَمايَ. لولا قَليلٌ لَزَلِقَتْ خَطَواتي. لأنّي غِرتُ مِنَ المُتَكَبِّرينَ، إذ رأيتُ سلامَةَ الأشرارِ. لأنَّهُ لَيسَتْ في موتِهِمْ شَدائدُ، وجِسمُهُمْ سمينٌ. لَيسوا في تعَبِ النّاسِ، ومَعَ البَشَرِ لا يُصابونَ. لذلكَ تقَلَّدوا الكِبرياءَ. لَبِسوا كثَوْبٍ ظُلمَهُمْ. جَحَظَتْ عُيونُهُمْ مِنَ الشَّحمِ. جاوَزوا تصَوُّراتِ القَلبِ. يَستَهزِئونَ ويَتَكلَّمونَ بالشَّرِّ ظُلمًا. مِنَ العَلاءِ يتَكلَّمونَ. جَعَلوا أفواهَهُمْ في السماءِ، وألسِنَتُهُمْ تتَمَشَّى في الأرضِ. لذلكَ يَرجِعُ شَعبُهُ إلَى هنا، وكمياهٍ مُرويَةٍ يُمتَصّونَ مِنهُمْ. وقالوا: «كيفَ يَعلَمُ اللهُ؟ وهل عِندَ العَليِّ مَعرِفَةٌ؟». هوذا هؤُلاءِ هُمُ الأشرارُ، ومُستَريحينَ إلَى الدَّهرِ يُكثِرونَ ثَروَةً.

حَقًّا قد زَكَّيتُ قَلبي باطِلًا وغَسَلتُ بالنَّقاوَةِ يَدَيَّ. وكُنتُ مُصابًا اليومَ كُلَّهُ، وتأدَّبتُ كُلَّ صباحٍ. لو قُلتُ أُحَدِّثُ هكذا، لَغَدَرتُ بجيلِ بَنيكَ. فلَمّا قَصَدتُ مَعرِفَةَ هذا، إذا هو تعَبٌ في عَينَيَّ. حتَّى دَخَلتُ مَقادِسَ اللهِ، وانتَبَهتُ إلَى آخِرَتِهِمْ. حَقًّا في مَزالِقَ جَعَلتَهُمْ. أسقَطتَهُمْ إلَى البَوارِ. كيفَ صاروا للخَرابِ بَغتَةً! اضمَحَلّوا، فنوا مِنَ الدَّواهي. كحُلمٍ عِندَ التَّيَقُّظِ يا رَبُّ، عِندَ التَّيَقُّظِ تحتَقِرُ خَيالَهُمْ. (مزمور ٧٣: ١-١٩).

وُجِد الشر منذ البداية مع الخير، ووُجِد بالتالي الأشرار منذ الحية في الجنة إلى قايين، إلى البعض في أيام نوح، ثم حزب برج بابل وغيرها على مدار التاريخ... والله في محبته لنا سمح بذلك، من خلال حرية الإرادة التي منحها للكل، ولكنه نبّه إلى وجود طريقين: الخير والشر، الموت والحياة، وطلب أن نختار الحياة لنحيا. وفي قصة أيوب وُجد البار مع أصدقاء

متعبين، وصديق واحد حكيم، وشيطان متربّص، وأعداء دمروا كل ما يمتلك، وفي النهاية غلب أيوب بالله.

ومن الأشرار نعرف الأبرار، لأن الضد بالضد يظهر، نعرف السهل من الصعب، والحلو من المر.

ومن الملفت أن الكثير من الأشرار غير معروفين، والقليل فقط هم الذين نشكو منهم، إن شر الخفيين أخطر من الظاهرين، ولذلك نُصلي قائلين: «مؤامرات الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنا...»، ومن ثَمّ فعلينا أن نثق في محبة الله وحمايته.

ويتأسف آساف قائلًا: «لأَنِّي غِرْتُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ، إِذْ رَأَيْتُ سَلاَمَةَ الأَشْرَارِ» (مزمور ٣:٧٣)، وإرميا النبي يقول «أَبَرٌّ أَنْتَ يَا رَبُّ مِنْ أَنْ أُخَاصِمَكَ. لكِنْ أُكَلِّمُكَ مِنْ جِهَةِ أَحْكَامِكَ: لِمَاذَا تَنْجَحُ طَرِيقُ الأَشْرَارِ؟ اِطْمَأَنَّ كُلُّ الْغَادِرِينَ غَدْرًا! غَرَسْتَهُمْ فَأَصَّلُوا. نَمَوْا وَأَثْمَرُوا ثَمَرًا» (إرميا ١٢:١، ٢). والأنبا أنطونيوس يسأل الله عن التناقض الموجود بين طبقات الناس... ولكن الشر قد ينجح مؤقتًا، وقد ينجح هنا، وقد يكون نجاحًا ماديًا فقط، هل سمعت عن شرير نجح في الميطانيات الأكثر أو الصلوات والقراءات الأكثر، وعمل الخير؟ فإذا نجح فيها فإنه بذلك لن يكون شريرًا، والمهم الذين يفرحون ويضحكون أخيرًا. واعتراض آساف.

ونحن نهتم بأن نخلص من الشر فقط، ولا شأن لنا بالشرير سوى أن ننجو من شره، بل ونصلي لأجله، كما كان الآباء يفعلون في البرية حين يقابلون شيطانًا، فقد كانوا يرشمون ذواتهم بعلامة الصليب لينجوا من أذاه فقط، وليس عليه هو. هكذا قال الرب «لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشِّرِّيرِ» (يوحنا ١٥:١٧)، ونقول في الصلاة الربية «لكِنْ نَجِّنَا مِنَ الشِّرِّيرِ».

ليس هناك شخص شرير بطبعه، ولكن شخص مولود بار واكتسب الميول الشريرة من البيئة والمجتمع وأصدقاء السوء، وبالتالي فيمكن التخلص من الشرور، ومن ثَمّ فالسجون تهدف إلى إبعاد الشخص عن مصادر الشر وحمله على مراجعة نفسه والبدء من جديد حياة تخلو من الشر.

.....

ولكن، وكما للأبرار دور هام في حياتنا، سواء أكان الوالدين، أو الأب الكاهن أو بعض الخدام، أو الشخصيات التي أثّرت فينا، أو ما نقرأه عن البعض من فضائل ومآثر، وبالطبع سير القديسين والأبرار المعاصرين.. فإنه على الجانب الآخر يوجد الأشرار، سواء أكانوا ممن يحيطون بنا أو يستهدفوننا أو من نسمع أو نقرأ عنهم أو نقابلهم.

إن مثل هؤلاء ضروريون لنا جدًا، فهم يحسنون إلينا كما يحسن إلينا الأتقياء، وربما أكثر، فإن المديح لا يبني قدر ما تبني المذمة، والأشرار يقربوننا إلى الله ويدفعوننا إلى الاتضاع ويحموننا من الانتفاخ بسبب ما يمكن أن يكون أو نظنه نجاحًا.

كما أن الأشرار يؤكدون لنا أن البشر كلهم ليسوا أشرارًا، وإنما فقط هذه المجموعة، فإذا قاومك عشرة فلتدرك أنهم العدد اليسير من بين الآلاف الذين يحبونك ويفرحون لخيرك، فإن صمت الجميع فكيف لك أن تعرف الذين يضمرون لك الشر؟

ومع ذلك فالأشرار قد لا يقصدونك شخصيًا، ولكنهم قد يعانون من سم داخلهم يؤذيهم أكثر مما يؤذيك، فقد لا يكرهك شخص ما، ولكنه اعتاد على الانتقاد والسخرية من أي شخص، وقد يندم فيما بينه وبين نفسه، وقد لا ينتبه أنه يخطئ أساسًا، وقد يكون مغلوبًا من سوء التعبير أو بساطة التصرف، ومن ثَمّ فاحتماله والصلاة لأجله تؤثر فيه كثيرًا.

هنا ويجدر بنا مناقشة أمر هام، وهو كيف تحدد إن كان الشخص شرير أم لا؟ هل من خلال الأذية التي وصلتك منه؟ هنا وأقول إنه قد يؤذيك شخص ما دون قصد منه، وقد تشترك بعض الظروف والملابسات في إيذائك ولكن دون تدبير منه.

ولكن بعض الأشرار إنما يفعلون ذلك انتقامًا من آخرين في شخصك، مثلما يقرر عبد أن ينتقم من كل سيد مثلما حدث مع الأنبا موسى الأسود وآخرين، أو شخص تم خداعه من آخر ومن ثم اعتاد خداع الآخرين انتقامًا، ولذلك أرجو أن تنتبه إلى أن أي إساءة منك قد يدفع ثمنها الكثيرون في أماكن متفرقة.

وهنا أذكر قصة ذلك الرجل الخيّر، الذي أركب معه على حصانه عابر سبيل وجده في الطريق، غير أن الأخير ألقى الرجل الخيّر أرضًا، وفرّ بالحصان، فجرى خلفه الرجل، لا ليستعيد حصانه ويوبخه، وإنما ليتوسل إلى السارق ألّا يحكي القصة لأي شخص، وذلك حتى لا يمتنع الناس عن عمل الخير.

ومع ذلك تذكّر الخيّرين الذين أحسنوا إليك والذين لهم الفضل فيما أنت فيه، أن عدد الأبرار وغير الأشرار أكثر بكثير من الأشرار، فهل يمكنك الأن أن تحصي عدد الأشرار في حياتك أو الذين سمعت عنهم؟ إنهم لن يتجاوزا عدد أصابع اليد وبالكثير عدة عشرات، وما هذا العدد أمام مئات الألوف الذين قابلتهم وتحيا بينهم.

وفي زياراتي للسجون سمعت من المسئولين عن عدد كبير من النزلاء أفاضل وأتقياء، ونسبة منهم أبرياء رغم أنه تم تصنيفهم على أنهم مجرمين أشرار يجب وقاية المجتمع منهم بسجنهم.

كما نلفت الأنتباه إلى أن الشخص القوي هو متضع، يرجع بالملامة

على نفسه في كل شيء، ويعرف أنه ليس أحد كامل وقدوس إلّا الله وحده، ومن جهة أخرى فهو قوي بالقدر الذي يجعله لا يهتز بسهوله أمام شتيمة أو افتراء أو سخرية.

كذلك عليه أن يراجع نفسه، فليس كل انتقاد افتراء، وليست كل شتيمة قد أتت مجانًا، فكثيرًا ما يكون ما نلاقيه من إهانة أقل بكثير مما نستحق، فإننا كثيرًا ما نحرص على ألا تظهر عيوبنا للآخرين، ومن ثَمّ فقد وُجِّه لنا الانتقاد لأسباب تافهة ظهرت رغمًا عنا، فكم بالأحرى إذا شاع عنا الحقيقة كاملة.

كما أن التشهير هنا هو أهون كثيرًا من الفضيحة يوم الدينونة، وإذا عوقب إنسان هنا وقَبِل ذلك باتضاع وراجع نفسه وتاب، فإن ذلك ينقيه من جهة، ويؤهله للملكوت من جهة أخرى.

إن الله يسمح ببعض من تلك العناصر في حياتنا لمنفعتنا، مثلما توجد بعض أنواع من البكتريا –عفوًا في التشبيه– تُستخدَم لخير الإنسان كالخميرة وغيرها، كما لا ننسى أن الكثير من الأدوية تحتوي على نسبة من السموم، كما أن بعض الأمصال عبارة عن فيروس المرض نفسه، وفي هذا نفهم معنى القول «شفاء الضد بالضد».

إن بعض الأشرار يسبّبون لنا البركة، فإنهم يبعدون عنا الحروب اليمينية، وقد يخلص البعض من خلال الأشرار في حياتهم، كما تتحول المضايقات إلى بركات في حياتهم.

ومن منافع الأشرار في حياتنا تنبيهنا بألّا نكون نحن أنفسنا أشرارًا ومهاجمين، وفي هذا نقول أنه من نِعَم الله علينا أننا نتألم وننجرح ونبكي، ولولا ذلك لأصبحنا مصدرًا لمرارة الكثيرين وآلامهم.

وعبر التاريخ الكتابي والكنسي لا يوجد مسئول أو شخص عادي، لم

يواجه في حياته بعضًا ممن ينغّصون عليه حياته، ويحرمونه من الفرح بإنجازاته، من نوح إلى لوط إلى الآباء البطاركة إلى داود وسليمان الذي أقام الله له خصمًا هو هدد الأدومي، وحتى الرب يسوع نفسه «إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ، وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ»، ونقرا أنه وصفهم بالجيل الشرير، وكم من مرة أرادوا أن يصطادوه بكلمة.

ويمكن القول هنا بأنه ما لم يفعل الأشرار معنا ذلك لخطف الشيطان النجاح والإنجاز، ولكن الله يوازن بين نجاحاتنا والاتضاع الذي يجب أن نكون عليه، فقد قال الآباء أن نطلب إلى الله أن يعطينا مع الموهبة الاتضاع الذي يحفظها. ولعلنا نذكر هنا الشوكة التي أُعطيت للقديس بولس لئلا يرتفع من كثرة الإعلانات، ونتذكر أن عليم الساحر وإسكندر الحداد قاوماه مثل الكثير من اليهود الذين اشتكوا عليه، ويوحنا الحبيب كان ديوتريفس يتربّص به هاذرًا عليه بأقوال قبيحة.

وفيما يبكي الشخص ويتألم معانيًا من جروح الذين أتعبوه، ربما يكون الأخيرون خالين الذهن من كونهم أساءوا أو أخطأوا، وربما لو عاتبتهم لتعجبوا منك.. إذًا فالأمر يخصنا نحن، **نحن معنيون برد فعلنا تجاة الإهانة وكيف نستقبلها وكيف نتعامل معها، بغضّ الطرف عن الآخر ونياته، فإن هذا يعلمه الله.** وفي يوم الدينونة لن يسألنا الله عن أخطاء الآخرين، بل سيجازي كل واحد فواحد عن أعماله، وبالتالي فإننا لن نستطيع أن نحتج بوجود الأشرار في حياتنا.

أنبّه كذلك إلى أن البعض من الأشرار، إذا أدرك أنه بإمكانه أن يُفقدك سلامك ببعض السخرية وبكلمات قليلة، فقد تصبح هدفًا ساذجًا لأمثاله، فيُقال إن أمثال أولئك الأشرار يستمدّون قوتهم من ضعف فرائسهم، فلا تكن سهل الاستثارة، بل كن رزينًا حتى وإن تأثرت فلا يظهر ذلك عليك من الخارج.

الشرير ومن يسيء إليك يحتاج إلى شفقة لا إلى حقد وتحدٍ وانتقام، فإن النار لا تُطفأ بالنار، قال أحد الآباء: «إن أنت قصدتَ الإحسانَ إلى الأخيارِ والإساءةَ إلى الأشرارِ، فمنزلتُك منزلةُ قاضٍ لا عابد». وقال أخٌ للأب بيمين: «إن أنا رأيتُ أخًا قد سمعتُ عنه سماعًا قبيحًا، فهل من الواجبِ عليَّ ألّا أُدخله قلايتي؟ وإن رأيتُ أخًا صالحًا، فهل أفرحُ به؟»، فأجابه الشيخ: «إن أنت صنعتَ مع الأخ الصالح خيرًا قليلًا، فأصنع ضِعفَه مع ذاك، لأنه أخٌ مريض».

وأخيرًا.. أرجو أن تفرّق بين احتمال الإهانة وقبولها، فقد احتمل الرب يسوع اللطمة من الجندي، ولكنه لم يقبلها، بل عاتبه بحب قائلًا: إن كنتُ قد فعلتُ رديًا فاشهد على الردي، وإلّا فلماذا تلطمني؟.

لا تجازوا أحدًا عن شر بشر، بل بَارِكُوا ولا تلعنوا... وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ.

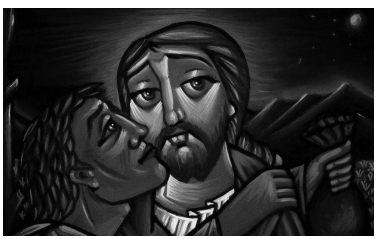

ملاك من السماء يقويه

«وَانْفَصَلَ عَنْهُمْ نَحْوَ رَمْيَةِ حَجَرٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَلَّى قَائِلًا: يَا أَبَتَاهُ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُجِيزَ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسَ. وَلكِنْ لِتَكُنْ لاَ إِرَادَتِي بَلْ إِرَادَتُكَ». وَظَهَرَ لَهُ مَلاَكٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّيهِ» (لوقا ٢٢:٤٣).

يبدو لأول وهلة أن المسيح كان في حالة ضعف، ومن ثَمّ جاء ملاك يقوّيه، وفسّرها البعض بأنه يتألم كإنسان ومن ثَمّ جاء ملاك يشدّده، مثلما كان في القديم أن يظهر ملاك ليقوّي شخصًا كجدعون وغيره. وقد يستخدم الآريوسيون مثل هذا التفسير دليلًا على أن المسيح لم يكن إلهًا أو كان مجرد نصف إله أو شخص بين البشر والله، والدليل أن أحد المخلوقين يأتي ليشدده.

ولكن تعبير يقويه معناه أنه يعطيه أو ينسب له القوة، مثلما نعطيه المجد والقدرة والبركة (وأتذكر أن تعبير «تقعد بالعافية» بينما يفسره البعض بأنه يفتقر إلى القوة البدنية، فإن معناه «لتكن معك القوة»). لقد جاء الملاك يشهد له بأنه قوي ومُمجَّد وعظيم. إننا طوال البسخة نمجده قائلين «لك القوة والمجد والبركة والعزة إلى الأبد آمين»، طوال الفترة التي يُعاني فيها من الآلام الجسدية والنفسية متألمًا، نسبحه بأن مظهر الضعف هذا يخفي القوة والمجد والكرامة، إذًا فقد جاء الملاك يمجده، وعلى هذا القياس يقوّيه، قال السمائيون له: «آمِينَ! الْبَرَكَةُ وَالْمَجْدُ وَالْحِكْمَةُ وَالشُّكْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ لإِلهِنَا إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. آمِينَ!» (رؤيا ٧:١٢)، ومن ثَمّ فنحن عندما نرتل لحن «آمين آمين آمين»، ونقول فيه: «نسبحك نباركك نشكرك»، وكذلك عند السجود للجسد والدم نقول «نسبحك نباركك نخدمك ونسجد لك»، فلا نقصد أننا نمنح الرب البركة كلّا! وإنما ننسب له كل هذه باعتباره مصدرها وعلتها.

على هذا القياس نفهم الهوس الثالث (تسبحة الفتية الثلاثة في آتون النار): «باركوا الرب ياعبيد الرب.. باركي الرب أيتها الليالي والأيام.. والشمس والقمر.. والطيور والوحوش...»، كل ذلك يعني ببساطة: تلقّي منه البركة، وانسبي له البركة وكل مجد. وفي الصلاة الربية نردد: «لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ وَالْقُوَّةَ وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ. آمِين» (متى ٦:١٣).

بل أن ظهور الملاك في جثسيماني، يؤكد ألوهية المسيح، فهوذا خدامه في خدمته يثبتون للناظرين أنه سيدهم وإلههم، وأنهم طوع أمره. وفي البستان عندما استل القديس بطرس سيفه ليقتل عبد رئيس الكهنة، عاتبه المسيح بقوله: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ! أَتَظُنُّ أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ الآنَ أَنْ أَطْلُبَ إِلَى أَبِي فَيُقَدِّمَ لِي أَكْثَرَ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ جَيْشًا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ؟ فَكَيْفَ تُكَمَّلُ الْكُتُبُ: أَنَّهُ هكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ؟» (متى٢٦:٥٢-٥٤).

ونقرأ عن موقف مشابه في حديث المسيح مع فيلبس وأندراوس وبعض اليونانيين عن مجده وعلاقته بالاب: «أَيُّهَا الآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ!». فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ:«مَجَّدْتُ، وَأُمَجِّدُ أَيْضًا!». فَالْجَمْعُ الَّذِي كَانَ وَاقِفًا وَسَمِعَ، قَالَ:«قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ!». وَآخَرُونَ قَالُوا: «قَدْ كَلَّمَهُ مَلاَكٌ!». أَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ:«لَيْسَ مِنْ أَجْلِي صَارَ هذَا الصَّوْتُ، بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ» (يوحنا ١٢:٢٨-٣٠)، حيث نفهم أن الصوت الذي صار واعتبره من معه صوت ملاك، أنه صار لأجلهم ليتأكدوا من ألوهيته.

الملائكة في حياة يسوع بالجسد: ظهر الملاك جبرائيل ليبشر العذراء بميلاده العجيب. وبعد ولادته ظهر الملائكة للرعاة يبشرون بميلاده، وقال واحد منهم «وُلِدَ لَكُمُ الْيَوْمَ مُخَلِّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ». وظهر ملاك ليوسف

ليأخذ الصبي وأمه إلى مصر، وفي صومه وتجربته ظهرت الملائكة لتخدمه «ثُمَّ تَرَكَهُ إِبْلِيسُ، وَإِذَا مَلاَئِكَةٌ قَدْ جَاءَتْ فَصَارَتْ تَخْدِمُهُ» (متى ٤:١١)، «وَكَانَ هُنَاكَ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُجَرَّبُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكَانَ مَعَ الْوُحُوشِ. وَصَارَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَخْدِمُهُ» (مرقس ١:١٣). وظهرت الملائكة لتعلن قيامته «فَنَظَرَتْ (المجدلية) مَلاَكَيْنِ بِثِيَابٍ بِيضٍ جَالِسَيْنِ وَاحِدًا عِنْدَ الرَّأْسِ وَالآخَرَ عِنْدَ الرِّجْلَيْنِ، حَيْثُ كَانَ جَسَدُ يَسُوعَ مَوْضُوعًا» (يوحنا ٢٠:١٢)، ثم يخبر الملاك النسوة أن ليس هو ههنا ولكنه قام. وعند صعوده ووسط حيرة التلاميذ قال الملاك لهم: «أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ» (أعمال ١:١١).

هكذا وقد تركه الجميع كما سبق ونبههم، وانفضّوا عنه، كانت الملائكة في خدمته وحيث يوجد الملك يوجد حوله جنوده... وليلة الجمعة حيث كان المسيح يصلي في البستان، نقرأ من إشعياء النبي: «قَدْ دُسْتُ الْمِعْصَرَةَ وَحْدِي، وَمِنَ الشُّعُوبِ لَمْ يَكُنْ مَعِي أَحَدٌ. فَدُسْتُهُمْ بِغَضَبِي، وَوَطِئْتُهُمْ بِغَيْظِي. فَرُشَّ عَصِيرُهُمْ عَلَى ثِيَابِي، فَلَطَخْتُ كُلَّ مَلاَبِسِي... فَنَظَرْتُ وَلَمْ يَكُنْ مُعِينٌ، وَتَحَيَّرْتُ إِذْ لَمْ يَكُنْ عَاضِدٌ، فَخَلَّصَتْ لِي ذِرَاعِي، وَغَيْظِي عَضَدَنِي» (إش٦٣:٣،٥).

نبارك الرب: ماذا تعني هذه العبارة؟ ومثلها: الرب مبارك «مُبَارَكٌ هُوَ مِنَ الرَّبِّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ»؟ مثلما نقول: قدوس هو الرب وممجد ومكرم، أي أنه مصدر القداسة، فهو ليس قديسًا أو مُقدَّسًا فقط، بل مُقدِّس، بل قدوس، «القدوس الوحيد هو الآب، القدوس الوحيد هو الابن، والقدوس الوحيد هو الروح القدس». وهكذا نسبحه، أي أنه يستحق التسبيح؛ ونباركه أنه مصدر كل بركة؛ ونمجده أي مصدر كل مجد. ومن ثَمّ لا نضع إكليلًا على رأس المسيح في الأيقونات، وإنما هو مصدر كل كرامة ومجد.

ويمكـن أن نعتبـر أن للبركـة مسـتويات ثلاثـة: بركة النـد للنـد، وبركة من أسـفل لأعلـى، وبركـة مـن أعلى لأسـفل.

١. **النـد:** نبارك شخصًا ونهنئه: من النـد للنـد.

٢. **مـن أعلـى لأسـفل:** الصغير يُبـارَك من الكبيـر، يبـاركك الله أي يُعطيك البركـة أو بركـة يعقوب لبنيـه مثلًا..

٣. **البركة من أسفل لأعلى:** شكر الله وتسبيحه.

هكـذا عندمـا قـال القديـس متـى إنـه ظهـر مـلاك يقوّيـه، كان المقصـود هو تقويـة التلاميـذ الـذي قـد يشكّون فيـه بسـبب مظهـر الضعـف الـذي بـدا عليـه من الخـارج.

أمـا نحـن، فـإن الله يقوينا فـي جهادنا، وقد قرأنا كثيرًا عن ظهور الملائكة في جهادات القديسـين، ونقرأ كثيرًا في التاريخ الكنسـي عن ظهور الملائكة للشـهداء والقديسـين لتقويتهـم وتعزيتهـم وشـفائهم، ولكـن الله في هذه الحالة يرسـل ملائكته لتقويـة أولاده لئـلا يخوروا في جهادهم.

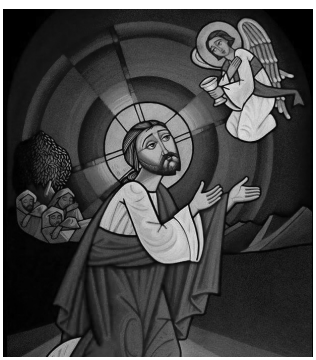

ذبح إسحق

قصة ذبح إسحق، أغلى ما فيها هو العنوان... فهي قصة الفداء.. وهي اليوم الذي رآه أبونا إبراهيم وفرح. والعجيب أن إسحق لم يُذبَح فعليًا وإنما بالنيّة، ومع ذلك فالثابت أنها «ذبح إسحق» وليس «مشروع ذبح إسحق» أو «محاولة ذبح إسحق».. وصارت «قسمة ذبح إسحق» هي الأشد عذوبة وتأثيرًا بين صلوات القسمة في الليتورجية. وتذكّرني القسمة بمرثية ابنة يفتاح الجلعادي والتي كانت العذارى ترتلها كل عام في تذكار بتوليتها.

تمتع أبونا إبراهيم بصفات نادرة وصار مثلًا فيها، منها الإيمان والطاعة، وآمن إبراهيم بالله فحُسِب له برًا، وأطاع إبراهيم الله فباركه وبارك نسله، وجعله رأسًا لذرّية اليهود، ومن نسل إبراهيم جاءت الأسباط الاثنا عشر، وأعطى الله إبراهيم خيرًا جزيلًا وشخصية مرموقة. وهو رجل حرب، انتصر على الملوك وخلّص الأسرى (تكوين١٤).. ولكنه عانى كثيرًا بسبب عدم الإنجاب، ثم أعطاه الله في شيخوخته، ومن ثَمّ كان إسحق غاليًا جدًا لديه ولدى أمه سارة.. وفجأة يتعرض إبراهيم لتجربة قاسية ألا وهي فقدان ابنه. فقد أراد الله أن يمتحنه بذلك، ولنا هنا عدة ملاحظات:

١- **امتحان:** امتحن الله ابراهيم بمعنى أنه ليس رغبة حقيقية في أن يذبح إبراهيم ابنه اسحق، أو قبول الله ذبيحة بشرية، لأَنَّهُ ليس بِذَبَائِحَ مِثْلِ هذِهِ يُسَرُّ اللهُ، وإنما يُظهر إيمان إبراهيم وطاعته، ويقدم هذا النموذج للأجيال التالية. وإمعانًا في الصدق والشفافية ذكر له الله: «ابنك، وحيدك، إسحق الذي تحبه»، أي انتبه إلى قيمة ما ستقدمه وماذا يعني لك، فالعطية يجب أن تكون غالية، أغلى ما نملك، ولنتذكر أن إسحق أتى بعد سنين طويلة من الحرمان.

٢- **هذا يذكّرني بالذين يقدمون مما يفضل عنهم!** يقدمون الأبلق والأعور والمخطط والرقطاء والزوائدي.. وفي أيامنا هذه الأجهزة القديمة والمنقولات المتهالكة؛ وليس أفضل ما عندهم. إنهم يحمّلون الكنيسة عبئًا بدلًا من أن يقدموا عونًا. وفي الكنائس والأديرة الكثير من الأجهزة والسيارات القديمة والمزرية.

٣- هناك من يتبرع بالمال، أو الوقت، أو الجهد، والبعض بجزء من جسده كقطعة عظم أو كلية أو جزء من الكبد، ومن يوصي بأعضائه بعد موته، والبعض يقدم نفسه، ولكن الأغلى أن يقدم شخص ابنه.

٤- مشهد تقديم إسحق ووضعه فوق الحطب يستحضر أمامنا مشهد الأم دولاجي، والأم رفقة، وأم المكابيين، وأولادهن أمام أعينهن يُقتَلون وهن يشجعنهم، يطمئنّ عليهم قبل استشهادهن أنفسهن، أو يسبقوهم إلى الفردوس ليستقبونهم هناك.

٥- **لم تكن تجربة إبراهيم هي التضحية بابنه فقط، وإنما أن يذبحه بيده طائعًا وراضيًا،** لقد قلت لكم إن الرعاة لا يطيقون أن يذبحوا إحدى غنماتهم، أو أن يرون إحداها تُذبح أمام أعينهم، كما أنه لا يقبل أن يأكل من لحمها.. وإبراهيم صاحب قطعان كبيرة، فكيف سيذبح إبراهيم ابنه؟ ولكنه لم يتردّد، هكذا جاء عن الآب -وإبراهيم يُشير إليه- من جهة المسيح الذبيحة الحقيقية لمغفرة الخطايا: «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟» (رومية ٨:٣٢).

٦- كان الله يعرف قلب إبراهيم ومحبته، ولكنه أراد أن يُسجل للأجيال القادمة نموذجًا للطاعة والتضحية، طاعة الله وتفضيله على كل شيء وكل أحد.

«آهِ لو تدرين ما أعلمُ عن أبرام جَدّي
قصةَ الطاعةِ والمذبحِ والابنِ المُعدِّ

طاعـة غنّـى بهـا العالـمُ مـن عهـدٍ لعهدِ
طاعة أورثتها، قد أصبحت عنوانَ مجدي»

٧- **قدم إبراهيم إسـحق بالفعل:** «بِالإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْـحَاقَ وَهُوَ مُجَرَّبٌ. قَدَّمَ الَّذِي قَبِلَ الْمَوَاعِيدَ، وَحِيدَهُ» (عبرانيين ١١:١٧)، هكذا يُحسَـب كل من يقدم بالنيّـة، بـل وكل مـن أراد أن يُقدّم وليس لـه كما نقول في أوشـية القرابين. ولعل أعظـم مـا فـي هـذه القصة هو العنوان «ذبح اسـحق» فهو لم يُذبَـح بالفعل ولكنه قدمه بالنيّة، فصارت تقدمته فعلية وليسـت مشـروعًا أو محاولة.

٨- **في تقديم إسـحق رأى أبونا إبراهيم ظل تقدمة المسـيح على الصليب، وقيامتـه مـن الأمـوات،** فقد عاين تقدمة إسحق وعودتـه حيًـا، «إِذْ حَسِـبَ أَنَّ اللهَ قَـادِرٌ عَلَـى الإِقَامَـةِ مِـنَ الأَمْـوَاتِ» (عبرانييـن ١١:١٩). هكـذا قـال السـيد المسـيح لليهـود الذيـن تشـدّقوا بأنهـم أولاد إبراهيـم: «أَبُوكُـمْ إِبْرَاهِيـمُ تَهَلَّـلَ بِـأَنْ يَـرَى يَوْمِـي فَـرَأَى وَفَـرِحَ. فَقَـالَ لَـهُ الْيَهُـودُ: لَيْسَ لَكَ خَمْسُـونَ سَـنَةً بَعْـدُ، أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيـمَ؟ قَـالَ لَهُـمْ يَسُـوعُ: الْحَـقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُـونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ» (يوحنـا٨:٥٦-٥٨).

٩- **ويُشـير إسـحق إلى السـيد المسـيح،** فهو الابن الحبيب الوحيد، وهو نفس لقب المسيح «الابـن الوحيـد الجنـس» «بِهـذَا أُظْهِـرَتْ مَحَبَّـةُ اللهِ فِينَا: أَنَّ اللهَ قَـدْ أَرْسَـلَ ابْنَـهُ الْوَحِيـدَ إِلَـى الْعَالَـمِ لِكَـيْ نَحْيَـا بِـهِ» (١يوحنـا ٤:٩). وإبراهيـم أبـوه الطاعـن فـي السـن يرمـز إلـى الآب الأزلي مـع الابن والروح القـدس. وكما أن إسـحق وُلِـدَ بمعجـزة، كذلـك المسـيح وُلِـدَ بمعجـزة. وكمـا أطـاع إسـحق أبـاه حتـى المـوت، هكـذا الآب بـذل ابنـه الوحيـد حتـى المـوت، «وَإِذْ وُجِدَ فِـي الْهَيْئَةِ كَإِنْسَـانٍ، وَضَـعَ نَفْسَـهُ وَأَطَـاعَ حَتَّـى الْمَـوْتَ مَـوْتَ الصَّلِيـبِ» (فيلبـي ٢:٨). والحطـب الـذي حمله إسـحق يُشـير إلى الصليـب الذي حمله المسـيح، وكلاهما خشـب. بـل ويُقـال إن جبـل الموريـا -والذي هو حقل أرونة اليبوسـي- الذي قدّم

عليه إبراهيم ابنه إسحق، هو نفسه المكان الذي بُني عليه الهيكل حيث قُدِّمت جميع الذبائح وجميعها ترمز إلى ذبيحة المسيح. وكما رجع إسحق حيًا هكذا قام المسيح من الموت، كما نذكر في قسمة ذبح إسحق. كما اُستُخدِم الحمار في الدخول في المرتين إلى حيث مكان الذبح (جبل موريا، وجبل الجلجثة المتاخم لأورشليم). ومسيرة الثلاثة أيام التي سارها إبراهيم حتى الموضع، هي مقابل أيام القبر الثلاثة. والقيامة من الموت تقابل الرجوع حيًا.

١٠- الله لا يدعنا نجرب فوق طاقتنا بل يُعطي المنفذ مع التجربة، «لَمْ تُصِبْكُمْ تَجْرِبَةٌ إِلاَّ بَشَرِيَّةٌ. وَلكِنَّ اللهَ أَمِينٌ، الَّذِي لاَ يَدَعُكُمْ تُجَرَّبُونَ فَوْقَ مَا تَسْتَطِيعُونَ، بَلْ سَيَجْعَلُ مَعَ التَّجْرِبَةِ أَيْضًا الْمَنْفَذَ، لِتَسْتَطِيعُوا أَنْ تَحْتَمِلُوا» (١كورنثوس١٠:١٣)، ولا يدع إنسانًا يُعاني أكثر من طاقته، ومن ثَمّ أعطى المنفذ هنا. ولم يكن أبونا إبراهيم يدري كيف يكون المنفذ، فالله يفاجئنا دائمًا، وعند الناس نعم ولا، بينما عند الله بين النعم واللا عشرات الطرق البديلة. دع الله يفاجئك...

١١- كثيرًا ما يأتي الله في الهزيع الرابع، وبعد أن يبذل الإنسان كل ما في وسعه، وبعد أن تُعيا حيلته، يفاجئه الله بما لم يتوقع، ويحل المشكلة بطريقة غير متوقعة.. هكذا فعل الله مع أبينا إبراهيم، فقد كان إبراهيم يؤمن بوعد الله أنه باسحق يُدعى له نسل، وكان يعرف أنه على نحو ما سيحقق الله له الوعد.

١٢- لا شك أنه فكر في سارة وكيف ستستقبل الخبر وتفقد أعز ما لديها، وكيف سيعود إليها بدونه.. وقد بكّر إبراهيم وسارة غالبًا نائمة حتى لا تُحقّق معه إلى أين يذهب بابنها. إن هذا يذكّرني بأب أوصل ابنه إلى الدير، وتبقّى أن يواجه زوجته بذلك، أو الابن ذاته الذي ترهّب دون إذن ذويه، وكيف يحاربه الشيطان بصدمة أمه وحزنها، مثلما حدث مع أبوي القديسين

مكسيموس ودوماديوس وغيرهما. «اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ، بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟» (رومية ٨:٣٢).

١٣- ثلاثة أيام كاملة، مدة كبيرة جدًا، هي مسيرته حتى الجبل الذي سيقدم عليه الذبيحة، يُعاني إبراهيم خلالها من أمواج الأفكار وتلاطمها، ما بين الشك في محبة الله ووعوده، وفقدان إسحق، ورد فعل سارة. إن إبراهيم مع كل ما وصل إليه من علاقة خاصة بالله جعلته يُدعى «خَلِيلَ اللهِ» أي صديقه، هو في النهاية إنسان تحت الضعف مثلنا كما قيل عن إيليا، ويُنسَب إلى الآباء والأنبياء العديد من المواقف التي ضعفوا فيها، بل أن السيد المسيح كإنسان تألم وعانى من الضعف البشري.

١٤- هذا يذكّرني بمن يتردد ويتراجع خلال الفترة ما بين إطلاق النذر وإيفائه، كثيرين نذروا ولم يستطيعوا الوفاء، سواء من جهة النذور أو العطايا. ولعل القديس بطرس وعد بأن لا يتخلى عن المسيح ولكنه ضعف، ومثله التلاميذ الذين هربوا، والذين يطلبون حِلًّا عن نذور لا يستطيعون إيفائها، ومن يطلبون البدائل أو التقسيط وغيرها... تقديم الذبيحة ووقت الدفع أو الوفاء هو المحك الحقيقي..

١٥- يذكرني ذلك بمن قرأنا عنهم ممن خلعوا عيونهم وقضموا ألسنتهم وألقوا أنفسهم من علو، ومن أحرقوا أنفسهم، ومن احتالوا لكي يقطع الجنود رقابهم... إن المحك الحقيقي هو لحظة التنفيذ، فقد يحدث أيضًا أن يتظاهر المُجرم بالقوة والشجاعة، ولكنه يجبن وينهار أمام السيف. قال لهم القديس ديسقورس: «أوقدوا النار ونحن نريكم كيف يكون الاستشهاد».

١٦- تساؤل إسحق: بدأ الابن يسأل أباه: «يَا أَبِي!.. هُوَذَا النَّارُ وَالْحَطَبُ، وَلكِنْ أَيْنَ الْخَرُوفُ لِلْمُحْرَقَةِ؟!» (تكوين ٢٢:٧). ولابد أن نتصور معًا وقع السؤال على أبينا إبراهيم.. يقول العلامة أوريجانوس: في هذه اللحظة تتجسّم

في كلمة الابن (يَا أَبِي) أقسى مواقف التجربة، هذا السؤال هو المحك الحقيقي لإيمان أبينا إبراهيم وطاعته لله، تصوروا إلى أيّة درجة يستطيع صوت الابن الذي سيُذبح أن يثير أحشاء أبيه؟! ويُجيب إبراهيم ابنه بكلمات تتمزق أحشاؤه وهو يقولها: «هأَنَذَا يَا ابْنِي». كأنى به يقول له تذكرني ببنوتك لي..

١٧- ولكن كيف سلم إسحق نفسه لأبيه دون اعتراض أو مقاومة؟ كيف لم يهرب؟ لقد كان عمره ٢٥ سنة تقريبًا، أي في ريعان شبابه. لقد كانت اللحظات عصيبة على الاثنين معًا، كانت المحنة محنتهما معًا، ولم تكن تضحية أحدهما أقل من الآخر، كيف ربطه أبوه ليذبحه؟! وكيف قبل هو ذلك في تسليم تام؟!

١٨- إن ما هو أغلى من دم الذبيحة هو روح الطاعة التي قدمها كل من إبراهيم وإسحق معًا، فقد يقدم الشخص مضطرًا أو أملًا في مكافأة أو إيفاءً لخير قُدِّم له، وتذكروا أن المنطق كثيرًا ما عاقنا عن تقديم الخير وطاعة الله، وكثيرًا ما تكون المشيئة الإلهية غير متفقة مع المنطق البشري.

بطاعة الاثنين كسبا كل شيء، أمّا إن كانا قد تراجعا لخسرا كل شيء...

١٩- ذكرتني هذه القصة بقصة يفتاح وابنته (قضاة ١١)، فقد قرّر الأب أن يقدم ابنته ذبيحة لله لأنها أول من خرج لاستقباله كما وعد الرب، في حين لم تعترض الابنة بل قالت في شجاعة الرجال: «تمّم نذرك وافعل بي ما نطقت به شفتاك»، وكانت ابنة وحيدة أيضًا وكانت المعاناة أيضًا معاناة الاثنين معًا، أب لا يتراجع وابنة لا تخذله مُضحّية بحياتها.

٢٠- وتتغنى الكنيسة يوميًا بما فعله إبراهيم مؤكدة أن الله قبل ذبيحته إسحق بالطبع وليس الكبش، «وكما قبلت إليك قرابين هابيل الصديق وذبيحة أبينا إبراهيم وفلسي الأرملة، هكذا نذور عبيدك اقبلها اليك...» (أوشية القرابين).

٢١- **الطاعـة والبركـة:** «ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وَقَالَ: بِذَاتِي أَقْسَمْتُ يَقُولُ الرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَالرَّمْلِ الَّذِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِي» (تكوين ٢٢: ١٦-١٨). هكذا المؤمن وبالأحرى الراهب يختبر أنه عندما يُعطي الطاعة لله يهبه الله البركة في المقابل. وصار إبراهيم رمزًا في التاريخ لكل من الطاعة والبركة.

٢١- **أخيـرًا.. قسـمة ذبـح إسـحق:** هي القسمة الأشهر والأشد تأثيرًا والأكثر حبًا لدى الناس، وهي أكثر قسمة تم الإبداع فيها من الكثير من الآباء أصحاب الأصوات الجميلة. وتحكي القسمة القصة بكثير من الحميمية، ويتعاطف المُصلون مع إبراهيم وإسحق خلال هذه الصلاة، وهي أقرب للمرثية مثل المرثيات الكثيرة الموجودة في الكتاب المقدس (كمرثية داود لشاول ويوناثان).

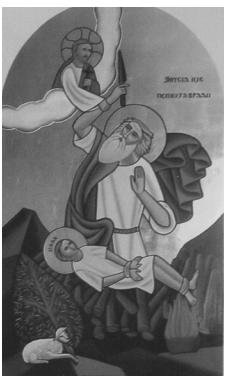

طوبى لعيونكم لأنها تبصر

«وَلكِنْ طُوبَى لِعُيُونِكُمْ لأَنَّهَا تُبْصِرُ، وَلآذَانِكُمْ لأَنَّهَا تَسْمَعُ فَإِنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَنْبِيَاءَ وَأَبْرَارًا كَثِيرِينَ اشْتَهَوْا أَنْ يَرَوْا مَا أَنْتُمْ تَرَوْنَ وَلَمْ يَرَوْا، وَأَنْ يَسْمَعُوا مَا أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَمْ يَسْمَعُوا» (متى ١٣: ١٦، ١٧).

يحمل هذا الجزء من الإنجيل عدة مفاهيم جميلة، ما بين التطويب والتبكيت والتحذير...

الحواس المُدرَّبة:

هناك أعين ليست للبصر، وآذان ليست للسمع «مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ» (متى ١٣: ٤٣)، وقلوب ليست للفهم، «مِنْ أَجْلِ هذَا أُكَلِّمُهُمْ بِأَمْثَال، لأَنَّهُمْ مُبْصِرِينَ لاَ يُبْصِرُونَ، وَسَامِعِينَ لاَ يَسْمَعُونَ وَلاَ يَفْهَمُونَ» (متى١٣: ١٣). هناك بالطبع فرق بين البصر والبصيرة، وبين مجرد السمع من جهة، والفهم والطاعة من جهة أخرى (مثل الفرق بين تعبير «سومس ⲥⲱⲙⲥ» نظر، و»جوشت ϫⲟⲩϣⲧ» بمعنى تطلّع). وعندما تقول لطفل: «اسمع الكلام» فإنك تقصد بالطبع «أطع». كما أنه توجد حواس إرادية في داخل الإنسان، تلك التي توجّه الحواس الخارجية، وهو ما أراده السيد المسيح عندما صرّح بأنه إن أعثرتك عينك أو يدك فاقلعها عنك... الخ.

بل يُخضع بعض الرهبان أنفسهم لتدريبات قاسية في هذا الشأن، فيتخيل نفسه أعمى تارة، وتارة أعرج أو أصم أو أخرس، ويسلك لبعض الوقت على أساس ذلك، ويخرج عندئذ بخبرة كبيرة، وهكذا بقية الحواس. يقول القديس

بولس: «وَأَمَّا الطَّعَامُ الْقَوِيُّ فَلِلْبَالِغِينَ، الَّذِينَ بِسَبَبِ التَّمَرُّنِ قَدْ صَارَتْ لَهُمُ الْحَوَاسُّ مُدَرَّبَةً عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ» (عبرانيين ٥:١٤).

قديمًا وحديثًا:

تكلم الله مع الآباء والأنبياء قديمًا بأنواع وطرق شتى، مثل النبوات والرؤى والرموز والإشارات والأحلام والأمثال، وأحيانًا بظهورات في شكل بشر أو ملائكة أو نار أو عواصف أو دخان. وأكثر القدماء حظوة كان موسى النبي، حيث تكلم مع الله فمًا لأذن، يقول الكتاب عن ذلك: «كَمَا يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ» (خروج ٣٣:١١)، ولكنه لم يره إذ قال الرب لموسى إنه لا يستطيع أحد أن يراه ويعيش. ونقرأ عن «مَنُوحُ» أنه بعد أن رأى ملاك الرب: «فَقَالَ مَنُوحُ لامْرَأَتِهِ: نَمُوتُ مَوْتًا لأَنَّنَا قَدْ رَأَيْنَا اللهَ» (قضاة ١٣:٢٢). وقال بلعام بن بعور: «أَرَاهُ وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ. أُبْصِرُهُ وَلكِنْ لَيْسَ قَرِيبًا. يَبْرُزُ كَوْكَبٌ مِنْ يَعْقُوبَ، وَيَقُومُ قَضِيبٌ مِنْ إِسْرَائِيلَ، فَيُحَطِّمُ طَرَفَيْ مُوآبَ، وَيُهْلِكُ كُلَّ بَنِي الْوَغَى» (عدد ٢٤:١٧). بل مرّت فترات طويلة لم يكن فيها نبي: «وَكَانَ الصَّبِيُّ صَمُوئِيلُ يَخْدِمُ الرَّبَّ أَمَامَ عَالِي. وَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ عَزِيزَةً فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. لَمْ تَكُنْ رُؤْيَا كَثِيرًا» (١صموئيل ٣:١)، وورد في سفر المكابيين الأول أن اليهود تركوا حجارة المذبح الذي نجّسه أنطيوخس إبيفانيوس، حتى يقوم نبي فيهم يستشيرونه في كيفية التصرُّف فيها: «ووضعوا الحجارة في جبل البيت في موضع لائق إلى أن يأتي نبي ويُجيب عنها» (١مكابيين ٤:٤٦)، كما جاء أيضًا «وأن اليهود وكهنتهم قد حسن لديهم أن يكون سمعان رئيسًا وكاهنًا أعظم مدى الدهر إلى أن يقوم نبي أمين» (١مكابيين ١٤:٤١)، بل أن أخر أسفار الأنبياء في العهد القديم وهو سفر ملاخي، دُوّن قبل أول أسفار العهد الجديد بحوالي ٤٥٠ سنة، حيث كُتِب عقب العودة من السبي. وقال القديس بولس عن الآباء في العهد القديم: «فِي الإِيمَانِ مَاتَ هؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ،

وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا وَحَيُّوهَا... فَهؤُلاَءِ كُلُّهُمْ، مَشْهُودًا لَهُمْ بِالإِيمَانِ، لَمْ يَنَالُوا الْمَوْعِدَ، إِذْ سَبَقَ اللهُ فَنَظَرَ لَنَا شَيْئًا أَفْضَلَ، لِكَيْ لاَ يُكْمَلُوا بِدُونِنَا» (عبرانيين ١١: ١٣، ٣٩-٤٠).

هكذا كان كل ما تمتعوا به هو مجرد ومضات سريعة قليلة...

أما في العهد الجديد فقد تجسد الله وصار بيننا ورأينا مجده، ويقول القديس يوحنا: «الَّذِي كَانَ مِنَ الْبَدْءِ، الَّذِي سَمِعْنَاهُ، الَّذِي رَأَيْنَاهُ بِعُيُونِنَا، الَّذِي شَاهَدْنَاهُ، وَلَمَسَتْهُ أَيْدِينَا، مِنْ جِهَةِ كَلِمَةِ الْحَيَاةِ» (١يوحنا ١: ١)، بل وهبنا أن نأكل جسده ونشرب دمه الأقدسين، ونتحد به، ونرتل في لحن «بي أويك» الذي يُقال في توزيع الأسرار المقدسة: «يقوم حولك الشاروبيم والسارافيم ولا يستطيعون أن ينظروك. ونحن ننظرك كل يوم على المذبح، ونتناول من جسدك ودمك الكريم». بل وهبنا الله أن ندعوه «أبانا»، ودعانا أبناء وأخوة وأحباء وخواص (أخصاء).

ومن القلائل الذين نالوا نعمة خاصة في هذا الإطار، أولئك الذين عاصروا العهدين القديم والجديد، مثل يوحنا المعمدان، وزكريا وأليصابات، وحنّة النبية التي راحت تبشر جميع المنتظرين فداءً في أورشليم، وسمعان الشيخ الذي هتف قائلًا: «الآنَ تُطْلِقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلاَمٍ، لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرَتَا خَلاَصَكَ.. نُورَ إِعْلاَنٍ لِلأُمَمِ، وَمَجْدًا لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ» (لوقا ٢: ٢٩-٣٢).

ولكن ماذا رأى التلاميذ وماذا سمعوا حتى يطوّبهم الرب؟

والمقصود بالطبع بالتطويب هنا ليس المكافأة مثل «طُوبَى لِلْمَسَاكِينِ بِالرُّوحِ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ» بمعنى أن المتضعين سيرثون الملكوت، وإنما بمعنى أنهم محظوظين بأن يحيوا هذه الخبرة النادرة.. لقد رأوا سلطان الرب في شفاء المرضى وإخراج الشياطين وإقامة الموتى، حتى لقد كانوا

يبهتون منه، وهو ما عاينه تلميذا يوحنا المُرسَلان منه (متى١١). كما عاينوا سلطانه في التعليم: «لأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ»، إضافة إلى رُقي التعليم نفسه، فهو مختلف عن تعليم الفريسيين، حيث ظهر ذلك في الموعظة على الجبل. كما خصّهم الرب ببعض الأسرار «لأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا أَسْرَارَ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ». والأعظم من كل ذلك أن يروا الله متجسدًا، ويأكلوا ويشربوا معه، ويتجولوا معه طوال السنوات الثلاث ونيف التي قضاها معهم.

ونحن أيضًا:

هكذا يُقال عن الذين تربوا تربية مسيحية سليمة، والذين خدموا في الكنيسة وذاقوا الكثير من النعم والتعزيات، والذين تشمّسوا ووقفوا حول العرش حيث الملك بذاته، والذين أُتيحت لهم الفرصة أن يكونوا لصيقين بالكهنة والرهبان والخدام المباركين، وكذلك أولئك الذين درسوا في المعاهد اللاهوتية، ومثلهم الذين قرأوا وسمعوا كثيرًا، هؤلاء أُناس عاشوا الملكوت هنا على الأرض لذلك فهم مُطوَّبون.

والذين عندهم نسخ عديدة من الكتاب المقدس، والذين لديهم مكتبات ضخمة، والذين لديهم كنائس وكهنة وأنشطة، لقد كان هناك من ينتظر الجرائد المصرية في السعودية وبلاد أخرى، ليقرأوا بعض الآيات التي تتصدر النعي المسيحي في تلك الجرائد، أولئك ليس لديهم كنائس أو كهنة، بل وفي مصر العديد من القرى المحرومة من الكنائس. ومن ثَمّ فإن كل كتاب مُعطَّل ومُغلَق دون قراءة فإنه سيدينه...

ومن ثَمّ فإن كل من تمتع برؤية المسيح ثم تركه أو أنكره أو خانه، سيكون عقابه شديدًا ما لم يتب ويرجع إليه «وَأَمَّا ذلِكَ الْعَبْدُ الَّذِي يَعْلَمُ إِرَادَةَ سَيِّدِهِ وَلاَ

يَسْتَعِدُّ وَلاَ يَفْعَلُ بحَسَبِ إِرَادَتِهِ، فَيُضْرَبُ كَثِيرًا» (لوقا ١٢:٤٧)، كما أنه لن يستطيع البعض أن يتحجج بأنه لم يسمع، «لكِنَّنِي أَقُولُ: أَلَعَلَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا؟ بَلَى! إِلَى جَمِيعِ الأَرْضِ خَرَجَ صَوْتُهُمْ، وَإِلَى أَقَاصِي الْمَسْكُونَةِ أَقْوَالُهُمْ» (رومية ١٠:١٨).

بقي أن نقول أن هذا المقطع من إنجيل القديس متى –وهو موجود أيضًا في إنجيل القديس لوقا– اقتبسته الكنيسة لتضعه في أوشية الإنجيل، وهي صلاة تُقال قبل قراءة الإنجيل، باعتبار الإنجيل هو الخبر السار الذي أعلنه الله للبشرية، وتقول الكنيسة «فلنستحق أن نسمع ونعمل بأناجيلك المقدسة بطلبات قديسيك»، أي لكي لا ندان بأننا عاينّا وسمعنا فقط «لأَنِّي أَعْطَيْتُكُمْ مِثَالًا، حَتَّى كَمَا صَنَعْتُ أَنَا بِكُمْ تَصْنَعُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا» (يوحنا ١٣:١٥)....

تبعيّة المسيح وحمل الصليب

«حينَئذٍ قالَ يَسوعُ لتلاميذِهِ: إنْ أرادَ أحَدٌ أنْ يأتيَ ورائي فليُنكِرْ نَفسَهُ ويَحمِلْ صَليبَهُ ويتبَعني، فإنَّ مَنْ أرادَ أنْ يُخَلِّصَ نَفسَهُ يُهلِكُها، ومَنْ يُهلِكُ نَفسَهُ مِنْ أجلي يَجِدُها. لأنَّهُ ماذا يَنتَفِعُ الإنسانُ لو رَبِحَ العالَمَ كُلَّهُ وخَسِرَ نَفسَهُ؟ أو ماذا يُعطي الإنسانُ فِداءً عن نَفسِهِ؟». (متى ١٦:٢٤-٢٦).

كثيرون تبعوا المسيح بشروط، وآخرون تراجعوا عنه لاحقًا، والبعض استمرّوا ولكن متذمّرين، وهناك من يتبعونه شكليًا فقط وهم لا يحملون سماته باطنيًا، كما أنهم مستعدون لإنكاره عند أدنى ضغط. وقد وضع السيد المسيح شروطًا لتبعيته، وعليها سوف يقتني الإنسان نفسه أو يتسبّب في هلاكها، أول تلك الشروط هو:

١- التخلّي:

التخلّي عن الممتلكات والأهل: «إنْ كانَ أحَدٌ يأتي إلَيَّ ولا يُبغِضُ أباهُ وأُمَّهُ وامرأتَهُ وأولادَهُ وإخوَتَهُ وأخَواتِهِ، حتَّى نَفسَهُ أيضًا، فلا يَقدِرُ أنْ يكونَ لي تِلميذًا» (لوقا ١٤:٢٦)؛ والبغضة هنا لا تعني الكراهية وإنما تعني أن يأتي ترتيب الله أولًا ودائمًا، وبذلك يزول التناقض الظاهري بين هذه البغضة للأهل من جهة، ووصية إكرام الوالدين من جهة أخرى: «أكرِمْ أباكَ وأُمَّكَ لكَيْ تطولَ أيّامُكَ علَى الأرضِ التي يُعطيكَ الرَّبُّ إلَهُكَ» (خروج ٢٠:١٢)، كما يقول القديس يوحنا: «كُلُّ مَنْ يُبغِضُ أخاهُ فهو قاتِلُ نَفسٍ، وأنتُمْ تعلَمونَ أنَّ كُلَّ قاتِلِ نَفسٍ ليس لهُ حياةٌ أبديَّةٌ ثابِتَةٌ فيهِ» (١يوحنا ٣:١٥)، كذلك يقول القديس بولس: «وإنْ كانَ أحَدٌ لا يَعتَني بخاصَّتِهِ، ولا سيَّما أهلُ بَيتِهِ، فقد أنكَرَ

الإيمانَ، وهو شَرٌّ مِنْ غَيرِ المؤمِنِ» (١تيموثاوس ٥:٨). ولقد مَنَعَ التعلُّق العاطفي والمَرَضي بالأهل الكثيرين من تبعية الرب، ليس على مستوى الرهبنة والتكريس فحسب، بل حتى في الخدمة وفي التناول وفي عمل الخير، وعندما دعا الرب البعض لتبعيته استعفى بعضهم قائلًا: «وقالَ لآخَرَ: «اتبَعني». فقالَ: «ياسيِّدُ، ائذَنْ لي أنْ أمضيَ أوَّلًا وأدفِنَ أبي»» (لوقا ٩:٥٩).

٢- ترك المقتنيات:

وهو ما اختبر به الرب الشاب الغني: «بِعْ أملاكَكَ وأعطِ الفُقَراءَ، فيكونَ لكَ كنزٌ في السماءِ، وتعالَ اتبَعني» (متى ١٩:٢١)، ولكن الشاب الذي تمسّك بماله خسر الملكوت، لأنه لا يمكن التمسك بالاثنين: «لا يَقدِرُ خادِمٌ أنْ يَخدِمَ سيِّدَينِ، لأنَّهُ إمّا أنْ يُبغِضَ الواحِدَ ويُحِبَّ الآخَرَ، أو يُلازِمَ الواحِدَ ويَحتَقِرَ الآخَرَ. لا تقدِرونَ أنْ تخدِموا اللهَ والمالَ» (لوقا ١٦:١٣).

كثيرين يحبّون الجسد، ويدلّلون الجسد: يشترون الأفضل، ويأكلون الأسمن والأثمن، ويتفنّنون في ألوان الطعام، يغيّرون الأثاث والديكورات، يخرجون للعشاء، يسافرون للتنّزه، يرتدون أفخر الثياب ويشترونها من أشهر المحال، وهي أمور ليست مرفوضة تمامًا، ولكن المرفوض هو أن تحلّ هذه الاهتمامات مكان الله: «ولكن الذينَ هُم للمَسيحِ قد صَلَبوا الجَسَدَ مع الأهواءِ والشَّهَواتِ» (غلاطية٥:٢٤)، والعجيب أن الناس يغفلون عن أن كل ذلك سيتركونه كارهين، ونرى ونسمع ونشارك كثيرًا في الصلاة على الراقدين، ونتأكد أنهم خرجوا كما وُلِدوا، ولكننا سريعًا ما ننسى ونعود إلى سابق اهتماماتنا الأرضية.

كم من مرّة منعت شهوة الطعام البعض من الصوم؟ وكم مرّة منع السهر واللهو من أن نبكّر للقداس؟ وكم مرّة ضغطنا على ضمائرنا للحصول على مزيد من المال لإرضاء شهواتنا ورغباتنا المادية؟

كم من مرة استغلّ الناس احتياج الكنيسة إلى عقارات وأراضي لخدمة

الشعب، فتاجروا بالكنيسة في وضوح ودون حياء، ونسوا أن الكنيسة باقية وهم زائلون! في حين أحسن كثيرون إلى الكنيسة من خلال المساهمة والتبرّع والتنازل عن حقوقهم، لينالوا بركة، ويكنزوا لهم كنزًا في السماء، بل الأكثر من ذلك لم يشعروا في أنفسهم أنهم يصنعون خيرًا في الكنيسة، كما لم يحصلوا على ضمانات أن ما يصنعونه يستحق المكافأة، بل لم يهتموا أصلًا، واكتفوا بأنهم إنما يفعلون ذلك حبًّا بالمسيح وفي هذا سعادتهم.

٣- التخلّي عن الذات (إنكار الذات):

يقول الرب: «حتَّى نَفسَهُ» (لوقا ١٤:٢٦)، فحمل الصليب فيه إهانة للذات: فقد كان المحكوم عليه بالصلب يسير حاملًا صليبه وأمامه من يحمل لافته عليها التهمة المنسوبة إليه، ويشبع تعييرًا وشتمًا وإهانة من المصطفّين على الطريق ومن المارّة، ويُقذَف بالحجارة، تشيّعه نظرات الشماتة. ولذلك فحمل الصليب يقترن بإنكار الذات، فكم من مرّة حالت الذات بين شخص وبين إكليل الشهادة، أو بينه وبين فضيلة من الفضائل، كالاحتمال والعطاء وغيرها.

من هنا أيضًا فإن المعمودية هي أول أسرار الكنيسة، عبارة عن موت وحياة، دفن وقيامة؛ فهي مدخل تبعية المسيح، وهي بالتالي الدرس المسيحي الأول، ففيها التعرّي من العالم، وفيها جحد الشيطان والخروج من مملكته كشرط لتبعية المسيح. لذلك فكل من يحب نفسه يهلكها ومن ينكر نفسه يخلّصها، وعلينا بالتالي أن نفعل ما يبني أنفسنا لا ما يرضي أنفسنا. القديس بولس نقل لنا هذه الخبرة عندما قال: «لكن ما كانَ لي رِبحًا، فهذا قد حَسِبتُهُ مِنْ أجلِ المَسيحِ خَسارَةً. بل إنّي أحسِبُ كُلَّ شَيءٍ أيضًا خَسارَةً مِنْ أجلِ فضلِ مَعرِفَةِ المَسيحِ يَسوعَ رَبّي، الذي مِنْ أجلِهِ خَسِرتُ كُلَّ الأشياءِ، وأنا أحسِبُها نُفايَةً لكَيْ أربَحَ المَسيحَ» (فيلبي ٣:٧،٨).

حمل الصليب:

هو أساس التلمذة للمسيح: «ومَنْ لا يَحمِلُ صَليبَهُ ويأتي ورائي فلا يَقدِرُ أنْ يكونَ لي تِلميذًا» (لوقا ١٤:٢٧)، كما قال أيضًا لتلاميذه: «إنْ أرادَ أحَدٌ أنْ يأتيَ ورائي فليُنكِرْ نَفسَهُ ويَحمِلْ صَليبَهُ ويتبَعني» (متى ١٦:٢٤)، ولم يكن الأمر موجَّهًا لتلاميذه فقط بل الكل: «ودَعا الجَمعَ مع تلاميذِهِ وقالَ لهُمْ:»مَنْ أرادَ أنْ يأتيَ ورائي فليُنكِرْ نَفسَهُ ويَحمِلْ صَليبَهُ ويتبَعني».» (مرقس ٨:٣٤)، «وقالَ للجميعِ:»إنْ أرادَ أحَدٌ أنْ يأتيَ ورائي، فليُنكِرْ نَفسَهُ ويَحمِلْ صَليبَهُ كُلَّ يومٍ، ويتبَعني»» (لوقا ٩:٢٣).

البعض يحمل الصليب كعرقية، أو مجرد علامة مسيحية، ويدخل في ذلك نوعه ومادته وأحجامه، إن كان على الصدر أو على اليد، أو مرسومًا على متعلَّقاتنا، أو معلَّقًا في سياراتنا الخ، وهو أمر جميل يحمل نوعًا من الفخر بمسيحيتنا، مثلما نفرح بأن يرشم لاعب علامة الصليب في الملعب، أو أن يرسمه البعض على ثيابهم الرياضية، أو داخل الـ«لوجو» أو الرمز التجاري أو الصناعي له؛ ولكن الصليب الذي طلب الرب منّا أن نحمله هو التجارب والضيقات التي تأتي علينا من جرّاء تبعيته، وقد تكون الصلبان أو التجارب نفسية أو مادية أو مالية أو أدبية ومن ثم فقد تكون للتجربة علامة ظاهرة، مثلما نحمل الصليب ظاهريًا.

وإن كان هناك من حمل الصليب مادة وآلامًا، مثلما حدث في بعض العصور حين أُلزم المسيحيين بحمل صلبان ثقيلة من الزهر أو الرصاص تحقيرًا لهم، ثقلت أعناقهم وتسببت في أن نفرت عروقهم وأُزرقت (حتى أنه أُطلق على المسيحيين بسبب ذلك «ذوي العظم الأزرق أو «عظمة زرقا») وهكذا حملوه شكلًا وموضوعًا. «نحملك أيها الصليب ناصر المسيحيين على أعناقنا بشجاعة» (ذكصولوجية الصليب).

والصليب هام وضروري لأنه لا قيامة بدون صليب ولا صليب بدون قيامة، كما أن حبّة الحنطة ما لم تقع أولًا في الأرض وتمت فلن تأتي بثمر: «الحَقَّ الحَقَّ أقولُ لكُمْ: إنْ لم تقَعْ حَبَّةُ الحِنطَةِ في الأرضِ وتمُتْ فهي تبقَى وحدَها. ولكن إنْ ماتَتْ تأتي بثَمَرٍ كثيرٍ» (يوحنا ١٢:٢٤)، كما أننا دُعِينا للألم والاضطهاد: «لأنَّهُ أيُّ مَجدٍ هو إنْ كنتُم تُلطَمونَ مُخطِئينَ فتصبِرونَ؟ بل إنْ كنتُم تتألَّمونَ عامِلينَ الخَيرَ فتصبِرونَ، فهذا فضلٌ عِندَ اللهِ، لأنَّكُمْ لهذا دُعيتُمْ. فإنَّ المَسيحَ أيضًا تألَّمَ لأجلِنا، تارِكًا لنا مِثالًا لكَيْ تتَّبِعوا خُطواتِهِ» (١بطرس٢:٢٠،٢١)؛ «غَيرَ مُجازِينَ عن شَرٍّ بشَرٍّ أو عن شَتيمَةٍ بشَتيمَةٍ، بل بالعَكسِ مُبارِكينَ، عالِمينَ أنَّكُمْ لهذا دُعيتُمْ لكَيْ ترِثوا بَرَكَةً» (١بط ٣:٩).

الصلبان في الحياة:

لكل منا صليبه المناسب لقامته الروحية وظروف حياته، وتقول القصص الشعبية أن واحدًا تذمّر على صليبه وطلب استبداله، ولما طُلِب إليه اختيار ما يناسبه راح يتنقّل بين الصلبان حتى اختار أخفّها وأشيكها، فلمّا تفحّصه جيدًا وجده أنه صليبه الذي اختاره له الرب منذ البداية.

ونحن كثيرًا ما نقع في خطأ كبير عندما نتذمّر ونستغرق في تفكير عميق باحثين عن مخرج، متذمّرين ناقمين أحيانًا، وننسى أن هذا صليب من الرب، وقد لا يكون هناك سبب سوى أن الله يؤدّبنا وينقّينا ويعدّنا للملكوت، ومن ثَمّ علينا أن نصبر ونفرح ونشكر: «إنْ كُنّا نَتألَّمُ معهُ لكَيْ نتمَجَّدَ أيضًا معهُ» (رومية٨:١٧). هذا هو الفرق بين المسيحية وغيرها من جهة التعامل مع الضيقات والآلام، المسيحي له المسيح مرجعية، بل وقد نبّه الرب الجموع مرارًا كثيرة إلى هذا الأمر، حتى أنه أكثر النصائح التي وجّهها في تعاليمه. وأحيانًا يستغرق شخصًا في رواية تفاصيل مشكلته العويصة فإذا بها تافهة لا تعد مشكلة بالمعنى الحصري.

والصلبان نوعان: داخلي وخارجي؛ الداخلي هو الحروب والخطايا، وربما الأمراض، وما يُعانيه الإنسان على مستواه الشخصي، بينما الخارجي هو الإهانات التي يتعرّض لها، لا سيمّا كمسيحي.

١- **صليب المرض:** سواء مرض الشخص طويلًا، أو تعرُّضه لحادث أو عاهة، وربما مرض من حوله أمراضًا مزمنة مثل أحد أفراد الأسرة. وهو صليب ثقيل عندما يطول المرض، ويتخلّله المشاجرات الناتجة عن صغر النفس، أو الإهمال في التمريض، أو التشكُّك في الحب، أو الخسارة المادية، أو ضياع الوقت بسبب التمريض، أو الملل الناتج عن طول المدة.

٢- **صليب الخسارة المادية بأنواعها:** التجارة التي خسرت، البيت الذي هُدِم، الوظيفة التي فُقِدت، لا سيمّا إذا امتدّ تأثير ذلك لفترة طويلة.

٣- ابن عاق أو مُعاق، أو زوج مشاغب أو منحرف، أو العكس؛ أو سلوك يجلب نوعًا من العار على الشخص، مثل من يطارد الدائنون قريبه ربما اخصائه.

٤- **السجن والتعيير:** لا سيمّا عندما يرافق ذلك معاناة داخلية بسبب الندم أو الشعور بالظلم، أو مضايقات من حوله، أو القلق على أسرته، ويزداد ذلك ضراوة كلما طالت المدة.

٥- **الفضائح السياسية أو الأخلاقية:** ما هو صحيح منها وما هو كاذب، وفي الحالتين هناك الآلام الناتجة عن الفضيحة، أو شخص ترك المسيح من الأسرة، أو تزوّج زواجًا مخالفًا أو معيبًا، وعلى الأهل والأقارب أن يجترّوا آلامهم.

+ + +

وهكذا لا يوجد شخص لا صليب له، ولا شوكة يتوجّع منها، هذا بالطبع

عندما يكون راشدًا يشعر بالمسئولية والألم، ومن هنا يُستثنى من ذلك الأطفال وغير العاقلين أي الذين لا يدركون، ويزداد الألم لا سيما عندما يشعر الشخص بالعجز أمام هذه التجربة أو الآلام، ولكن المسيح تجرّب مثلنا وبالتالي يقدر أن يعين المجرَّبين، وأنه يعطي القدرة على الاحتمال، والمنفذ مع التجربة، ويستخدم الله التجربة والصليب لخلاصنا.

بل يفرح الناس بصلبانهم يحملونها برضى وفرح، بل يطلب القديس بولس أن يكمل نقائص شدائد المسيح في جسده (كولوسي ١:٢٤)، أي ما يجب أن يتألم به لأجل المسيح، مثلما تألم هو لأجلنا، ولكنه حسب أن آلامه تُعدّ شيئًا يسيرًا بالقياس إلى آلام المسيح. لقد سار المسيح في نفس الطريق، واختبر معنى الظلم والتشهير والإهانة ورفض خاصته له.

هذا يفسّر لنا كيف احتمل الشهداء والمعترفون والقديسون السجن والتعذيب والقتل والاضطهاد، وغيرهم احتملوا الجوع والعرى والغربة، ومنهم من كان من الملوك والأمراء، وحملوا الصليب بفرح، واجتازوا هذا العالم، وعيّدوا مع المسيح. وفي ذكصولوجية الصليب نهتف: «السلام لك أيها الصليب عزاء المؤمنين وثبات الشهداء حتى اكملوا عذاباتهم».

+ + +

إذًا فإن إلتزامات تبعية المسيح هي:

١- **إنكار الذات:** ليتمجّد الله ويتنقّى الإنسان، ويصبح الله هو المركز.

٢- **ترك الكل:** كل ما نملك، وكل من حولنا، متخلّين عن أمور هذا العالم.

٣- **حمل الصليب بفرح ووعي:** فإن من يحب ذاته لا يمكنه أن يحمل الصليب.

الناسك والصليب:

رغب الناسك العجوز مرة أن يخرج من منسكه الصغير ويقصد الكنيسة الكبيرة القريبة من منسكه أسوة بالمؤمنين الكثر الذين يزورونها ويطلبون من الرب. ركع الناسك أمام الصليب الكبير القائم في وسط الكنيسة وقال: يا رب, أريد أن أتألم معك هلا أعطيتني مكانًا لأكون على الصليب بدلًا منك؟ تفاجأ الناسك بصوت المصلوب يقول له: «سأحقق لك طلبك بشرط أن تعدني بالبقاء صامتًا تمامًا طالما أنت على الصليب». قَبَلَ الناسك بالشرط وأخذ مكان المصلوب دون أن يلاحظه أحد.

وصل رجل غني صلّى وغادر ناسيًا محفظته المليئة بالمال الوفير، فبقي الناسك صامتًا. أتى بعده رجل فقير، وبينما كان يُصلي لاحظ المحفظة المليئة بالنقود على الأرض، فأخذها ومشى وبقي الناسك صامتًا. ثم أتى شاب ليطلب الحماية في سفره بالباخرة لأنه ذاهب إلى بلاد بعيدة، فيما كان الشاب المسافر يُصلي، وصل الرجل الغني يبحث عن محفظته فاتهم الشاب بسرقتها وبدأ بالصراخ والشتائم وهدّد باستدعاء الشرطة التي أتت واحتجزت الشاب.

لم يستطع الناسك البقاء صامتًا فنطق بالحقيقة وسط ذهول الجميع. فركض الغني مسرعًا وراء الفقير، والشاب مسرعًا وراء الباخرة لئلا تفوته. عندما فرغ المزار من الحجاج أتى الرب إلى الناسك وقال له: «انزل.. لست مؤهلًا أن تكون مكاني لأنك لم تبقى صامتًا». أجاب الناسك: «ولكن يا رب، هل يجب أن أبقى صامتا أمام مشكلة كهذه؟»، فأجاب الرب: «كان يجب أن يضيّع الغني ماله لأنه سيصرفه في عملية قذرة جدًا. وكان على الفقير أن يأخذه لأنه بحاجة ماسّة له. أما المسافر، فلو بقي في الحجز لكانت السفينة التي ستغرق في عرض البحر قد فاتته وبقي على قيد الحياة».

«الصليب هو سلاحنا الصليب هو رجاؤنا الصليب هو ثباتنا في ضيقاتنا وشدائدنا» (ذكصولوجية الصليب).

وأُحصِيَ مع أثمة

«وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ. فَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ» (مرقس٢٨،٢٧:١٥).

«وَجَاءُوا أَيْضًا بِاثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مُذْنِبَيْنِ لِيُقْتَلاَ مَعَهُ» (لوقا ٣٢:٢٣).

«سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ، وَهُوَ حَمَلَ خَطِيَّةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ» (إشعياء ٥٣:١٢).

كان للوالي الروماني عادة أنه في كل فصح يأتي من قيصرية إلى أورشليم ليقيم في قصره هناك مدة الاحتفالات، والتي قد تمتد إلى عشرة أيام. وخلال تلك الفترة ينهي بعض الأمور الهامة المتعلقة، كما ينظر في القضايا التي تُحجَز له شخصيًا من الزيارة إلى الأخرى، ومنها الأحكام التي تصل إلى الإعدام. كما جرت العادة أن يطلق سراح واحدًا أو بعضًا من السجناء المشهورين، كحدث يناسب أفراح العيد. كان أشهر هؤلاء المسجونين هو باراباس والذي اعتبره اليهود مناضلًا وطنيًا، فقد اشترك في بعض الحركات المناهضة لروما، ولم تقتله السلطات وقتها وإنما اعتقلته لتساوم به عند الحاجة مثلما يحدث في كثير من الأماكن. ولم يكن باراباس وحده في تلك الحركة والتي وُصِفت بأنها «فتنة وقتل»، وإنما كان معه آخرون منهم اللصان اللذان صُلِبا مع المسيح.

وبعد أن قرّر بيلاطس تسليم المسيح للصلب خوفًا على كرسيه، وبعد أن فشل في امتصاص غضبهم، لقد تحول الأمر من تطبيق العدالة الرومانية وعمل ردع للمجرمين والمناهضين إلى مساومة مهينة لروما ومناقضة للمبدأ

الروماني المعروف «أقم العدالة ولو انطبقت السماء على الأرض»، وسارت الأمور في اتجاه تلافي وجود تمرُّد في المنطقة.

لماذا قرّر بيلاطس أن يُصلب المسيح مع اثنين من المجرمين؟ هل ليُحسَب أنه مجرم مثلهم تحقيرًا له؟ أم ليبدو الأمر أن المقصود ليس المسيح نفسه، بل أيّ مناهض لروما أو متعدٍّ على السلم المجتمعي؟ أم أن باراباس كان هو الذي سيُصلَب، فجاء المسيح مكانه؟ وهكذا أُحصي مع أثمة.. هنا ولنا بعض الملاحظات:

+ ربما كانت الترجمة الأنسب هي «وتوسّط الأثمة»، فيكون المعنى بذلك أنه دخل إلى عالمنا، عاش بيننا، وأخذ بشريتنا نحن الأثمة، كما اشترك الأولاد في اللحم والدم اشترك فيهما هو أيضًا، وكما اشتركوا في الموت اشترك فيه هو أيضًا «لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، وَيُعْتِقَ أُولئِكَ الَّذِينَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ» (عبرانيين ٢:١٤،١٥)، ولم يكن هناك حلّ سوى أن يوجد بيننا ليرفعنا، من ثَمّ من عالمنا نحن إلى عالمه هو.

لم يتأفّف منّا، ولم يستحِ بعارنا، بل صار لعنة لأجلنا ليرفع عنا اللعنة. إن المسيح بذلك يشعر بكل ما يُعانية الرازحون تحت ثقل الخطية، والمحسوبون مجرمين وأثمة، والذي بلا خطية صار خطية لأجلنا.

ومات مع الخطاة، لكي يموتوا هم معه، ولكي يعلن كل من خَلُص: «مع المسيح صُلِبت».. كما قال معلمنا بولس الرسول: «فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ» (رومية٦:٤). «عَالِمِينَ هذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْطَلَ جَسَدُ الْخَطِيَّةِ، كَيْ لاَ نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا لِلْخَطِيَّةِ» (رومية٦:٦).

لقد كان عارًا كبيرًا أن يسير السيد المسيح في موكب الأثمة، وهو القدوس البار الذي بلا خطية، وكان عارًا أكبر أن يُصلَب في الوسط بين لصين، الواحد عن يمينه والآخر عن يساره، وكأنه هو رئيس العصاة والمذنبين!! ونقول في القداس الغريغوري: «من أجلي احتملت العار».

وممّا نردّده كنوع من التوثيق للحدث: «بسطَّتَ يديك وصلبوا معك لصين، عن يمينك وعن شمالك، وأنت كائن في وسطهما أيها المخلص الصالح» (لحن غولغوثا). ويشير القديس متى إلى ذلك قائلًا: «حِينَئِذٍ صُلِبَ مَعَهُ لِصَّانِ، وَاحِدٌ عَنِ الْيَمِينِ وَوَاحِدٌ عَنِ الْيَسَارِ» (متى ٢٧:٣٨)، بينما يقول القديس مرقس: «وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ» (مرقس ١٥:٢٧).

+ العجيب أن المسيح وقد ارتضى أن يُحسب مع اللصوص والأثمة، فإن اللصين كانا يعيّرانه! يقول القديس متى: «وَبِذلِكَ أَيْضًا كَانَ اللِّصَّانِ اللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ يُعَيِّرَانِهِ» (متى ٢٧:٤٤)، والعجيب أنهما يعيّران الذي قَبِل أن يُهان لأجلهما، واتخذ مكانًا بينهما ليرفعهما في النهاية.

+ عندما ذهب جند الرومان مع جند الهيكل للقبض عليه في بستان جثسيماني عاتبهم قائلًا: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ»، ولم يكن يعلم الذين هناك أنه سيُحسب كلص. فأجاب يسوع وقال لهم «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي!» (مرقس ١٤:٤٨).

+ وقد سأل بيلاطس اليهود مستنكرًا: «قد قَدَّمتُمْ إِلَيَّ هذا الإنسانَ كمَنْ يُفسِدُ الشَّعبَ. وها أنا قد فحَصتُ قُدّامَكُمْ ولَمْ أجِدْ في هذا الإنسانِ عِلَّةً مِمّا تشتَكونَ بِهِ علَيهِ» (لوقا ٢٣:١٤). لقد اتفقوا معه ليلًا أن يقضي بصلبه في الصباح، ولكنه بادرهم بالسؤال: «وأيّ شرّ صنع؟»، لقد قرّر أن يعيد نظر القضية برمّتها، وكرّر السؤال ثلاث مرات «فَقَالَ الْوَالِي: وَأَيَّ شَرّ عَمِلَ؟

فَكَانُوا يَزْدَادُونَ صُرَاخًا قَائِلِينَ: لِيُصْلَبْ!» (متى ٢٣:٢٧؛ مرقس ١٤:١٥؛ لوقا ٢٢:٢٣)؛ وهكذا خلال المحاكمة تأكد للحاكم أن يسوع ليس لصًا ولا شريرًا ولا آثمًا.

ولكن طلب المقايضة على باراباس، جعل المسيح يُحسَب كفاعل إثم، حيث يُقارن بذلك بشخص ثائر وقاتل. وعلى الرغم من أن هدف بيلاطس كان أن ينقذ يسوع من الموت، ولكن يسوع وقف بين لصين، بدلًا من وقوف باراباس بينهما، وهكذا أُحصي مع الأثمة الثلاثة.

+ كما حُسِب المسيح أثناء فترة خدمته مع الخطاة والعشارين، لأنه أحبهم وأكل معهم ودافع عنهم، ووسموه بأنه أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة.. بل أن بعضًا من أقربائه وصفوه بأنه «مختل»! ومع ذلك لم يستحِ من جنسنا. وأتذكر كيف اتهمت إحدى السيدات القديس آمون بأنه موسوس، لأنه لم يرد أن يصدر حكمًا ضد امرأة خاطئة، وعلّق هو قائلًا: «لقد اقتنيتُ هذا الوسواس في أربعين سنة، أتريدين أن أفقده من أجلك في هذه الساعة؟».

+ وقد تعلم المسيحيون الدرس من السيد المسيح، فنقرأ عن أشخاص كثيرين قبلوا أن يُحسَبوا مع أشرار دون استعفاء أو تأفُّف.. ومنهم الراهب الذي كان في مهمة مع صديقه، ولما أخطأ الأخير استحى أن يعود إلى الدير، ولكن الآخر شجعه موهمًا إياه أنه أفضل منه لأنه هو نفسه قد أخطأ مثله، وبينما اعترف صديقه فقد أخطأ هو ولم يعترف، وفي الدير وضعوا قانونًا صعبًا على الاثنين، وكان من لا ذنب له يقول: «يا رب احسب تعبي هذا لأخي»، حتى قال الآباء في ذلك الوقت، «أنه من أجل محبة الذي لم يخطئ غفر الله للذي أخطأ».

ونقرأ عن الأم ماريا في معسكر الاعتقال في ألمانيا، كيف أنها قرّرت أن تصطحب فتاة مأخوذة إلى الإعدام في غرفة الغاز السام، بسبب انهيار الفتاة

فور علمها أنها ذاهبة إلى الموت، وبالفعل ماتت الاثنتان وهي تحتضنها بقوة. هكذا وافقت أن تُحصى معها.

وممن يُحصَون مع الأثمة، أولئك الذين ينسبون لأنفسهم ما لم يفعلوا، لعلهم بذلك ينقذون آخرين، مثل الذي حمل قضية أب أو ابن أو صديق، ويُعاقَب مكانه.

ومن بين هؤلاء الذين يوجدون في السجون والمطابق دون إثم اقترفوه، ظُلِموا فتذلّلوا ولم يفتحوا أفواههم، ومنهم يوسف الصديق الذي سُجِن ظلمًا وبيع عبدًا، فُحسِب بين العبيد وبين السجناء، وهو البريء وابن العز والجاه.

ومنهم الذين تُوجَّه إليهم الإهانة وهم أبرياء.. وقد طوّب الرب مثل هؤلاء قائلًا: «طُوبَاكُمْ إِذَا أَبْغَضَكُمُ النَّاسُ، وَإِذَا أَفْرَزُوكُمْ وَعَيَّرُوكُمْ، وَأَخْرَجُوا اسْمَكُمْ كَشِرِّيرٍ مِنْ أَجْلِ ابْنِ الإِنْسَانِ» (لوقا ٦:٢٢)، ولكن لكي يستحق الأمر الطوبى، يلزم أن يستوفي ثلاثة شروط: أولًا: أن يكون ما وُجِّه هو إهانة بالفعل، وثانيًا: تكون الإهانة لأجل المسيح، وثالثًا أن تكون محض افتراء، أي دون ذنب اقترفه المُضطهَد «طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شِرِّيرَةٍ، مِنْ أَجْلِي، كَاذِبِينَ» (متى ٥:١١).

+ ألم يحصَ الشهداء مع الأثمة؟ ألم يعتبرهم الولاة الوثنيون أثمة؟ ألم يُعاقبوهم كفاعلي إثم؟ ألم يُلقَوا في السجون مع المُجرمين؟ ألم يُلقوا للوحوش؟ ألم يُقتَلوا كفاعلي شر؟.. ولكنهم كانوا يشعرون بالفخر لذلك، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.

+ ومن هؤلاء الذين اختاروا أن يحيوا مع فئات محسوبة في المجتمع أنها شريرة، مثل المدمنين والمُعاقين والحالات الخاصة، والشواذ وغيرهم، ولم يهتموا بسمعتهم ولا نظرة الناس لهم، بل مات البعض في سبيل هؤلاء مثل

«باسيل هانسن» الذي عاش بين المجذومين واكتشف العلاج وأنقذ الملايين وفي النهاية مات بالجذام.

ونقرأ عن القديس مكاريوس الكبير أنه زار راهبًا كان واقعًا تحت حرب عنيفة، ولما خجل أن يكشف أفكاره بادر القديس بأن نسب لنفسه هذه الأفكار والحروب طالبًا إرشادًا من الأخ، فتعجب وتشجع وروى له ما يعانيه.

+ ومن الناس من حسب نفسه جاهلًا وفقيرًا وبلا كرامة، مع أنه أهل للكرامة والغنى والمعرفة، «كَحَزَانَى وَنَحْنُ دَائِمًا فَرِحُونَ، كَفُقَرَاءَ وَنَحْنُ نُغْنِي كَثِيرِينَ، كَأَنْ لاَ شَيْءَ لَنَا وَنَحْنُ نَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ» (٢كورنثوس ٦:١٠). مثل صاحب العمل الذي يتباسط مع العمال البسطاء ويجالسهم ويشاركهم طعامهم وهمومهم. بل لقد قال السيد المسيح عن نفسه «لِلثَّعَالِبِ أَوْجِرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ، وَأَمَّا ابْنُ الإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ» (متى ٨:٢٠).

+ ولكن الجوهرة تظل جوهرة حتى لو وُضِعت بين الحصي والقش، بل يظهر بذلك جمالها بالأكثر، هكذا توسط المسيح لصين، ولكن احتسابه من الآثمة، لم ينفِ عنه ألوهيته، ولم يُعطّل عمله الخلاصي، بل أكّد ذلك أنه جاء لأجل الأثمة ومات عنهم: «فَإِنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا تَأَلَّمَ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ الْخَطَايَا، الْبَارُّ مِنْ أَجْلِ الأَثَمَةِ، لِكَيْ يُقَرِّبَنَا إِلَى اللهِ، مُمَاتًا فِي الْجَسَدِ وَلكِنْ مُحْيىً فِي الرُّوحِ» (١بطرس ٣:١٨).

+ هكذا كل من تألم مع المسيح تمجّد معه، وفي النهاية خزي المخالفون. وبينما ظنّ المُضطهِدون أنهم غلبوا وتفوّقوا وعَاقَبوا من رأوهم أشرارًا، تسبّبت الآلام في تزكية المتألمين بالأكثر، وخلّفت لهم إكليلًا نورانيًا. وعلينا ألّا نهتم كثيرًا بتصنيف الناس والعالم لنا بل الله، لأنه ليس من يمدحه الناس بل المُزكى، بل من يمدحه الله.

نحن بعدل جوزينا

«أَمَّـا نَحْـنُ فَبِعَـدْل، لأَنَّنَا نَنَالُ اسْـتِحْقَاقَ مَا فَعَلْنَـا، وَأَمَّا هذَا فَلَـمْ يَفْعَـلْ شَـيْئًا لَيْسَ فِي مَحَلِّـهِ» (لوقا ٢٣:٤١).

هـذه كلمـة عتـاب واعتـراف صـدرت مـن اللـص اليميـن، مُوجَّهة إلـى اللص الشـمال الـذي راح يجـدّف علـى الـرب، بـل أن اللـص اليميـن دافع عن المسـيح المصلـوب، ولنـا هنـا عـدة ملاحظات:

١. **هـذه توبـة واعتـراف منـه:** فقد أقـرّ أنه فعـل ما يسـتوجب العقـاب، أي أنـه أخطـأ ونـال عقابه، وهو راضٍ وغير متذمر. وكلمات الشـخص وهو مريض تكـون صادقـة، أمّـا وهو مشـرف على الموت فهي غاليـة وغاية في الصدق، فلم يعـد لديـه ما يخفيه ولا يخشـى منه.

٢. **هـذه التوبـة وهـذا الاعتراف أهّـلاه للمعمودية والغفران:** فقـد تعمّد بالدم ومـات مـع المسـيح، والمعموديـة هـي مـوت وقيامـة مع المسـيح، وهـي الصبغة التـي اصطبـغ بهـا مـع الـرب (كلمـة صبغـة أُسـتُخدِمت للدلالة علـى المعمودية والاستشـهاد، على الماء والدم)، وهو ما كان يحدث في العصور الأولى إذ كان المُعمَّد يتقدم لـلأب الكاهـن معترفًا بخطاياه قبل أن ينزل إلى جـرن المعمودية.

٣. **التوبـة والاعتـراف والمعموديـة كل هـذه أهلته للدخول إلـى الفردوس،** حيـث قـال لـه الـرب: «اليوم تكـون معي في الفردوس»، وهكذا في سـاعة واحدة اقتنـى الملكـوت، بينمـا نُـزِع الملكـوت مـن الكثير مـن الفهماء ورؤسـاء اليهود.. وهـذا مـا كان يحـدث مـع الموعوظيـن إذ كانـوا يقدمون اعترافهم قبـل المعمودية، وجـاء عـن يوحنـا المعمـدان «**وَاعْتَمَدُوا جَمِيعُهُمْ مِنْهُ فِي نَهْـرِ الأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُـمْ**» (مرقس ١:٥).

٤. **جميل أن يرجع الإنسان باللوم على نفسه في كل شيء**، فليست الخطورة في أن نخطئ، وإنما في أن لا نعترف بخطيتنا، من أجل ذلك كثيرون خطاياهم باقية «قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَانًا لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ، فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ» (يوحنا ٩:٤١)، وهذه مشكلة الكثيرين في السجون، فإن قال في نفسه: نحن بعدل جوزينا، فإن ذلك سيسهّل عليه قضاء فترة السجن ليخرج منها منتصرًا غانمًا رابحًا، وقد يرى أنه جوزى لأمور أخرى.. والشكر في الشدّة يعين على الخلاص منها.

٥. **لا تكن معنيًا بمن حكم عليك أو ظلمك**، فلا تلم السجّان وإنما اعتبر أن الذي سمح لك بهذا هو الله نفسه لتنقيتك، كما صرّح داود النبي عندما شتمه شمعي بن جيرا: «دَعُوهُ يَسُبَّ لأَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُ: سُبَّ دَاوُدَ. وَمَنْ يَقُولُ: لِمَاذَا تَفْعَلُ هكَذَا؟... دَعُوهُ يَسُبَّ لأَنَّ الرَّبَّ قَالَ لَهُ. لَعَلَّ الرَّبَّ يَنْظُرُ إِلَى مَذَلَّتِي وَيُكَافِئُنِي الرَّبُّ خَيْرًا عِوَضَ مَسَبَّتِهِ بِهذَا الْيَوْمِ» (٢صموئيل ١٦:١١،١٢).

٦. **إن عبارة «بعدل جوزينا» عبارة مطمئنة لأنها تعني أننا نلنا جزاءنا هنا في الأرض**، وهي ترتبط بالاعتذار والتوبة كما أسلفنا، لأن اعتراف الشخص بالخطأ واستحقاق العقاب يحمل في طياته التوبة. وهي عبارة تختلف بلا شك عن عبارة «لي النقمة أنا أجازي يقول الرب»، فإذا جوزى الإنسان ههنا فهو سيخرج من الجسد بلا عيب، فليس جميع الذين ماتوا على أسرّتهم في هدوء هم أبرار، أو لأنهم لم يُعاقَبوا هنا فهم بلا عيب، ومن هنا يقول داود النبي «جَرِّبْنِي يَا رَبُّ وَامْتَحِنِّي. صَفِّ كُلْيَتَيَّ وَقَلْبِي»، ونحن نقول للرب: محّصني وأزل عني الزغب والشوائب.

٧. **فماذا لو عوقب فازداد قسوة**، كما قال إرميا النبي «ضَرَبْتَهُمْ فَلَمْ يَتَوَجَّعُوا. أَفْنَيْتَهُمْ وَأَبَوْا قُبُولَ التَّأْدِيبِ» (إرميا ٥:٣)، ويقول سليمان الحكيم «إِنْ دَقَقْتَ الأَحْمَقَ فِي هَاوُنٍ بَيْنَ السَّمِيذِ بِمِدَقّ، لاَ تَبْرَحُ عَنْهُ حَمَاقَتُهُ» (أمثال ٢٧:٢٢).

هناك من يُضرَب فيتضع، ومن يُضرَب فيزداد قسوة، وما تزيده التجارب إلّا تصلُّفًا. رووا لي عن شخص محكوم عليه بالإعدام مع آخرين، أمّا هؤلاء فقدموا توبة ويتناولون من الأسرار ويقرأون ويصلون ويكتبون المذكرات، وأما هو فقد ازداد عنادًا وتجديفًا! يقول القديس أغسطينوس: «**لا تيأس، أحد اللصين خلص. ولا تغترّ، فاللص الآخر هلك**»، وقال: «**تشبّه بالعشار لئلا تُدان مع الفريسي**».

٨. **إن اللص اليمين باعترافه هدأت نفسه وتحمّل الآلام**، أو بالأحرى انشغل عن آلامه بالوعد والمجد الذي ينتظره، ووجد في هذه الآلام الطريق والعلّة في نجاته نجاة أبدية، إنها طريقة إيجابية للتعامل مع الضيقات والآلام والخسارة.

٩. إذا قالها الطالب الذي رسب، والتاجر الذي خسر، والمُصاب الذي جُرِح، والموظف الذي ظُلِم، والخادم الذي أُهين وطُرِد، والشخص الذي عُزل من وظيفته، فهو يستطيع تجاوز المحنة، واحتمال آلامها. بل إنها تحنّن قلب الله، وبالتالي قلوب الذين وضعوا العقوبة، ولنا في خروج سجين قبل نهاية مدته بحُسن السير والسلوك أبلغ دليل على ذلك.

١٠. **عجيب أمر اللص الشمال، فهو يجدف على المسيح ويتذمر عليه**، مع أن الرومان هم الذين قبضوا عليه وسجنوه وحكموا عليه بالموت، وهذا ليس من أجل المسيح وإنما من أجل تهديد السِلمْ المجتمعي ومناهضة السلطات الرومانية. ونحن كثيرًا ما نتخذ مواقف من الله بسبب شجاراتنا وخلافاتنا معًا، فإذا لحق بنا تعب ما من جرّاء ذلك اتخذنا من الله موقفًا.

ولكن المسيح هنا وهو مصلوب فاتح يديه لكلا اللصين، الذي جدف عليه والذي التمس غفرانه وسكناه معه، وقد اختار كل منهما مصيره بنفسه!

سينظرون إلى الذي طعنوه

«لكن واحِدًا مِنَ العَسكَرِ طَعَنَ جَنبَهُ بحَربَةٍ، ولِلوقتِ خرجَ دَمٌ وماءٌ. والّذي عايَنَ شَهِدَ، وشَهادَتُهُ حَقٌّ، وهو يَعلَمُ أنَّهُ يقولُ الحَقَّ لتؤمِنوا أنتُمْ. لأنَّ هذا كانَ ليَتِمَّ الكِتابُ القائلُ: «عَظمٌ لا يُكسَرُ مِنهُ». وأيضًا يقولُ كِتابٌ آخَرُ: «سيَنظُرونَ إلَى الّذي طَعَنوهُ».» (يوحنا ١٩:٣٤-٣٧).

الكتاب الآخر الذي يقصده القديس يوحنا هنا، هو في الواقع كتابان، الأول سفر زكريا، والثاني سفر الرؤيا، والكتابان كُتِبا قبل إنجيل يوحنا، وهو آخر ما كُتِب في العهد الجديد، وبالتالي في الكتاب المقدس كله.

القصة القديمة في سفر زكريا: ترد هكذا: «وَأُفِيضُ عَلَى بَيْتِ دَاوُدَ وَعَلَى سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ رُوحَ النِّعْمَةِ وَالتَّضَرُّعَاتِ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيَّ، الَّذِي طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُونَ عَلَيْهِ كَنَائِحٍ عَلَى وَحِيدٍ لَهُ، وَيَكُونُونَ فِي مَرَارَةٍ عَلَيْهِ كَمَنْ هُوَ فِي مَرَارَةٍ عَلَى بِكْرِهِ» (زكريا ١٢:١٠). وهذه نبوة عن المسيح، والمتكلم في سفر زكريا هو الله، والذين طعنوا المسيح هم اليهود، وسينظرون إليه، وينوحون عليه، وقد حدث بالفعل لاحقًا إن كثيرين من اليهود في أيام المسيح بكوا وناحوا وتألموا ولم يحتملوا المنظر.

ولكن للأسف فإن بعض الربيين اليهود فسّروا ما ورد في نبوة زكريا على أن اليهود هم الذين طُعِنوا! وإنما وكما يتضح من ضمائر النص، الذي طُعِن هو شخص واحد، «طَعَنُوهُ... يَنُوحُونَ عَلَيْهِ...»، فهو الذي طُعِن، وإليه نظروا هم وناحوا، وبالتالي فليس اليهود هم الذين ينظرون إلى يهوه متألمين وشاكين

إليه الذي طعنهم! وفي القرون الوسطى قال الرابي راشي أن المقصود بالذي طعنوه هو يسوع المسيح ابن يوسف.

وكما حرّف الربيين الضمائر في النص هنا في زكريا لتبعد عن المسيح، هكذا فعلوا بخصوص كافة النبوات المسيانية، فقد كانوا على سبيل المثال يفسرون الآية «قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ» (مزمور ١١٠:١)، على أنها تخص المسيا الآتي، فلما جاء المسيح ولم يجدوا فيه صدى للملك الأرضي كما تمنوا، عادوا فقدموا تفسيرًا مغايرًا وهو «قال الرب لسيدي الملك داود اجلس عن يميني...». وهم الذين أكدوا لهيرودس مجيء المسيح ومكان ولادته «فَقَالُوا لَهُ: فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ. لأَنَّهُ هكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ...» (متى ٢:٥).

إذًا فالمعنى المقصود في نبوة زكريا، هو أن اليهود سوف يندمون بشدة لاحقًا على طعنهم للمسيح رغم أنه يحبهم.

وفي الأزمنة التالية عاد الكثير من اليهود لينوحوا على خطاياهم، التي سبّبت لفاديهم كل هذه الآلام، ليس ذلك فحسب، وإنما لأنهم هم الذين قتلوه وليس الرومان، لقد كان الرومان مجرد أداة للموت، وهكذا بكتهم القديس بطرس في عظة يوم الخمسين قائلًا: «إِنَّ إِلهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، إِلهَ آبَائِنَا، مَجَّدَ فَتَاهُ يَسُوعَ، الَّذِي أَسْلَمْتُمُوهُ أَنْتُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ أَمَامَ وَجْهِ بِيلاَطُسَ، وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِطْلاَقِهِ... وَرَئِيسُ الْحَيَاةِ قَتَلْتُمُوهُ، الَّذِي أَقَامَهُ اللهُ مِنَ الأَمْوَاتِ، وَنَحْنُ شُهُودٌ لِذلِكَ» (أعمال ٣:١٣،١٥)، وفي عظته هذه نُخسوا في قلوبهم وآمن كثيرون منهم.

ونقرأ في وقت مبكر عن تلميذي عمواس، وهم من اليهود محبي المسيح، أنه بعد حديث الرب معهم عن النبوات الخاصة به وتفسيرها، أن قال أحدهما للآخر: «أَلَمْ يَكُنْ قَلْبُنَا مُلْتَهِبًا فِينَا إِذْ كَانَ يُكَلِّمُنَا فِي الطَّرِيقِ وَيُوضِحُ لَنَا الْكُتُبَ؟» (لو ٢٤:٣٢).

إن من لا يقبل المسيح الآن سيبكي يوم الدينونة بمرارة، ويكون بكاؤه كمن فقد بكره، لأنهم أدركوا أن الرب عندما تجسد اختار أن يأتي من الجنس اليهودي، وهو ابن إبراهيم بالجسد، وهم ثقبوا يديه ورجليه وطعنوه وصلبوه.

الجنب المطعون: هو الذي خرجت منه الكنيسة بحسب الكثير من آباء الكنيسة، وذلك من خلال الماء والدم اللذين تدفّقا منه، أي المعمودية والإفخارستيا، وهما أهم سرّين: الولادة من المسيح والثبات فيه. وكما خرجت حواء من جنب آدم الأول، خرجت الكنيسة من جنب آدم الثاني.

ولعلنا نذكر هنا أن السبب في إضافة الماء إلى العصير الكرم في الإفخارستيا هو نزول ماء ودم من جنب المسيح، كما أن تناول الدم بمفرده مثل الجسد هو أنه خرج دم من جنبه على الصليب.

.....

وفي سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي يرد: «هُوَذَا يَأْتِي مَعَ السَّحَابِ، وَسَتَنْظُرُهُ كُلُّ عَيْنٍ، وَالَّذِينَ طَعَنُوهُ، وَيَنُوحُ عَلَيْهِ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. نَعَمْ آمِينَ» (رؤيا ١:٧). ونحن نضع أمامنا باستمرار صورة المسيح المطعون، لنتأمل فيها ونتبكت وننوح، لأننا نحن الذين طعنّاه، ومن ثَمّ نتراجع عن خطية، أو نقدم توبة عن خطايا أخرى.

وفي جميع البلاد المسيحية وفي كنائسها المنتشرة في طول البلاد وعرضها تتزين الحوائط والساحات بأيقونات وصور وتماثيل المسيح، ويظهر فيها الجنب المطعون.

إن النوح عليه والندم هنا مقبول، ولكن النوح عليه عندما يأتي على السحاب، سيكون نوح اليائس الذي لا مجال أمامه للتوبة. كما أن ظهوره على

السحاب يعني أن الأمر واضح للجميع، لا يمكن إنكاره، وسيكون هذا الظهور مبكّتًا ومذكّرًا للكل.. مَثَلها مَثَل ظهور علامة ابن الإنسان، هكذا قال الرب: «وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلاَمَةُ ابْنِ الإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ، وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَاب السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ» (متى ٢٤:٣٠).

أتذكر أنهم قديمًا كانوا يرسمون على حوائط السجون أو على سقوفها، الآلة التي استخدمها المُجرم في جريمته، ليظل متذكرًا على الدوام طبيعة جريمته، لعل يكرهها ويكره أداة اقترافها.

أظن أن لونجينوس الذي طعن جنب المسيح، قضى بقية حياته شاخصًا في هذا الجنب المطعون، والذي صار سببًا في توبته، لقد طعنه فصار له منه حياة وشفاءً.

أتذكر كذلك الآن أن القديس بوليكاربوس، والذي استشهد سنة ١٥٦م، حدث وهو وسط النار أن طعنه الجند بالحربة، فخرجت منه دماء كثيرة اطفأت النار.

.....

العجيب أن كثيرين ممن رأوا المسيح بجنبه المطعون لم يتأثروا، في حين تأثر لاحقًا الملايين لما قرأوا قصة آلامه وطعنه، ولما رأوا الأيقونات التي تصوّر المسامير والحربة.. مثلما لم يتأثر الشاب الغني بنصيحة المسيح له شخصيًا، بينما تأثر أنطونيوس عندما سمع شماسًا يعيد على مسامعه تلك النصيحة.

كما أن توما الرسول مجرد أن اقترب من الجنب المطعون صرخ «رَبِّي وَإِلهِي»، وكأن تيارًا كهربائيًا قد مسّه، وكان الجنب المقدس وقتها قد التئم ولم يعد ينزف دمًا.

بل شبّه بعض الآباء جنب المسيح المطعون بصخرة حوريب والتي تدفق للشعب منها ماء، فنجوا من الهلاك «وَجَمِيعَهُمْ شَرِبُوا شَرَابًا وَاحِدًا رُوحِيًّا، لأَنَّهُمْ كَانُوا يَشْرَبُونَ مِنْ صَخْرَةٍ رُوحِيَّةٍ تَابِعَتِهِمْ، وَالصَّخْرَةُ كَانَتِ الْمَسِيحَ» (١كورنثوس١٠: ٤)، والمسيح هو صَخْرَ الدُّهُورِ (تثنية ٣٢: ١٥؛ إشعياء ٢٦: ٤).

ومع ذلك فبينما يرى البعض المسيح المطعون فيختبئون فيه، هكذا البعض يرونه فيختبئون منه.

حقاً كان هذا الإنسان ابن الله

«وإذا حِجابُ الهَيكلِ قد انشَقَّ إلَى اثنَينِ، مِنْ فوقُ إلَى أسفَلُ. والأرضُ تزَلزَلَتْ، والصُخورُ تشَقَّقَتْ، والقُبورُ تفَتَّحَتْ، وقامَ كثيرٌ مِنْ أجسادِ القِدّيسينَ الرّاقِدينَ وخرجوا مِنَ القُبورِ بَعدَ قيامَتِهِ، ودَخَلوا المدينةَ المُقَدَّسَةَ، وظَهَروا لكَثيرينَ. وأمّا قائدُ المِئَةِ والّذينَ معهُ يَحرُسونَ يَسوعَ فلَمّا رأوا الزَّلزَلَةَ وما كانَ، خافوا جِدًّا وقالوا: «حَقًّا كانَ هذا ابنَ اللهِ!».» (مَتّى ٢٧:٥١-٥٤).

«فصَرَخَ يَسوعُ بصوتٍ عظيمٍ وأسلَمَ الرّوحَ. وانشَقَّ حِجابُ الهَيكلِ إلَى اثنَينِ، مِنْ فوقُ إلَى أسفَلُ. ولَمّا رأى قائدُ المِئَةِ الواقِفُ مُقابِلَهُ أنَّهُ صَرَخَ هكذا وأسلَمَ الرّوحَ، قالَ: «حَقًّا كانَ هذا الإنسانُ ابنَ اللهِ!»» (مَرقُسَ ١٥:٣٧-٣٩).

«ونادَى يَسوعُ بصوتٍ عظيمٍ وقالَ: «يا أبَتاهُ، في يَدَيكَ أستَوْدِعُ روحي». ولَمّا قالَ هذا أسلَمَ الرّوحَ. فلَمّا رأى قائدُ المِئَةِ ما كانَ، مَجَّدَ اللهَ قائلًا: «بالحَقيقَةِ كانَ هذا الإنسانُ بارًّا!». وكُلُّ الجُموعِ الّذينَ كانوا مُجتَمِعينَ لهذا المَنظَرِ، لَمّا أبصَروا ما كانَ، رَجَعوا وهُم يَقرَعونَ صُدورَهُمْ.» (لوقا ٢٣:٤٦-٤٨).

للأسف فإن هذا الاعتراف لم يأتِ من اليهود، الذين تطابقت عندهم النبوات الخاصة بالمسيا على شخص يسوع الناصري، ولكن قد أُخفِي عن أعينهم «لكَيْ يُبصِروا مُبصِرينَ ولا يَنظُروا، ويَسمَعوا سامِعينَ ولا يَفهَموا، لئَلّا يَرجِعوا فتُغفَرَ لهُمْ خطاياهُمْ» (مرقس ٤:١٢) فرفضوا المسيح، لأنه لم يحقق لهم أطماعهم السياسية والمادية، مثل الحروب والغنائم والأطماع التوسعية، ويتقّلد الزي والمنصب العسكري مثل شاول الملك، مع أن شاول نفسه انحرف وآذاهم كثيرًا.

بل جاء هذا الاعتراف من شخص ليست له خلفية يهودية وربما دينية بشكل عام، بل ربما كان كغيره من الضباط الرومان، يتسم بالخشونة والقسوة بسبب طبيعة عمله، ومن الوارد أنه أشرف على عمليات إعدام عديدة، في ظل ظروف تلك الحقبة وطبيعة الاستعمار الذي لم يكن يتفاوض مع الثوار والمناهضين لروما.

ويُعد هذا القائد هو الشخص الثاني الذي يؤمن بالسيد المسيح في موقف الصلب، بما صاحبه من ضعف ظاهر وآلام مبرحة وسخرية لاذعة، بل يفضي ذلك إلى موته، ولكن اللص اليمين اعترف بأنه بار: «فأجابَ الآخَرُ وانتَهَرَهُ قائلًا: «أوَلا أنتَ تخافُ اللهَ، إذ أنتَ تحتَ هذا الحُكمِ بعَينِهِ؟ أمّا نَحنُ فبعَدلٍ، لأنَّنا نَنالُ استِحقاقَ ما فعَلنا، وأمّا هذا فلَمْ يَفعَلْ شَيئًا ليس في مَحَلِّهِ». ثُمَّ قالَ ليَسوعَ: «اذكُرني يا رَبُّ مَتَى جِئتَ في ملكوتِكَ». فقالَ لهُ يَسوعُ: «الحَقَّ أقولُ لكَ: إنَّكَ اليومَ تكونُ مَعي في الفِردَوْسِ».» (لوقا ٢٣:٤٠-٤٣).

وقد عاين هذا القائد العظيم أربعة مشاهد غيرت حياته: الأول مشهد المحاكمة وحيرة بيلاطس وضعف حجج المشتكين على المسيح، ونبل المسيح وثباته وقوته. والمشهد الثاني أحداث الصلب وثورة الطبيعة وكلمات المسيح وحبه وغفرانه. والمشهد الثالث هو موقف بيلاطس وهو يقدم له تقرير الصلب والموت. والمشهد الرابع هو حراسة القبر والزلزلة وقيام المسيح وظهور الملائكة.

قواد المئة:

يضم الفيلق الروماني (الكتيبة) ستة آلاف جندي، وتنقسم الكتيبة إلى ستين فرقة، كل فرقة تتكون من مئة جندي، على رأسهم قائد يُسمّى «قائد المئة» Centurion، وكان في كل فرقة بالتالي ستة أمراء يخضع لهم قادة المئات. وكان قواد المئة هم أصحاب الرتبة الأهم في الجيش الروماني، فهم الروابط التي تربط الجيش معًا، وكان يُعتمَد عليهم في الحرب والسلام. ومن الجميل

أن العهد الجديد يذكر سبعة من قواد المئة، وجميعهم كانوا نبلاء وشرفاء، فقد كان هناك عدّة شروط لاختياره أهمها النبل والاستقامة.

قواد المئة في الكتاب المقدس:

وكما أشرنا فقد اتسم كل قواد المئة المذكورين في الكتاب المقدس بالكرم والنبل، منهم قائد المئة هذا والذي كان يشرف على تنفيذ حكم الصلب في المسيح. وقائد المئة الذي شفع في غلامه لدى السيد المسيح (متى٨:٥-١٣). وكرنيليوس قائد المئة في قيصرية، الذي صار مسيحيًا على يد القديس بطرس (أعمال١٠:١-٤٥). وقائد المئة المذكور في سفر أعمال الرسل، الذي اكتشف أن بولس روماني (أعمال٢٢:٢٥-٢٩). وقائد المئة الذي استدعاه الرسول بولس وطلب منه أن يذهب بابن أخته إلى الأمير، ليخبره بأمر المكيدة التي دبّرها بعض اليهود لاغتيال الرسول بولس (أعمال٢٣:١٧). وقائد المئة الذي أمره فيلكس الوالي بالاعتناء ببولس (أعمال٢٤:٢٣). وقائد المئة الذي رافق بولس وأسرى آخرين لكى يذهب بهم من قيصرية إلى روما للمحاكمة هناك، وسمح له بقيادة مَنْ بالسفينة (أعمال٢٧)، ولما انكسرت بهم السفينة في العاصفة، منع يوليوس هذا العسكر من أن يقتلوا الأسرى مخافة هروبهم، لأنه كان يريد أن يخلص بولس. وفي العهد القديم نقرأ عن إسماعيل ابن يهوحانان «قائد مئة في جيش يهوذا» (٢أخبار٢٣:١).

حول الصليب:

بينما كان الرب مُعلَّقًا على الصليب يقدم ذبيحة نفسه عنّا، وتصعد إلى الآب رائحة بخور على الجلجثة، كان حوله لصّان، آمن أحدهما به بينما جدّف الآخر. وتحت الصليب وقف كثيرون، منهم: اليهود الشامتون الشتّامون، والجنود الساخرون يركعون أمامه كمَن يركع أمام الملك، ومريم العذراء ويوحنا

الحبيب، وقائد المئة مع فرقته، والفتيات الشريفات اليهوديات اللاتي حملن الخلّ والمُرّ ليخفّفن عنه، ووُجِد كذلك المجتازون يجدّفون عليه وهم يهزّون رؤوسهم قائلين: «يا ناقِضَ الهَيكلِ وبانيَهُ في ثَلاثَةِ أيّامٍ، خَلِّصْ نَفسَكَ! إنْ كُنتَ ابنَ اللهِ فانزِلْ عن الصَّليبِ!» (مَتَّى٢٧:٤٠)، وكذلك رؤساء الكهنة أيضًا وهم يستهزئون مع الكتبة والشيوخ قالوا: «خَلَّصَ آخَرينَ وأمّا نَفسُهُ فما يَقدِرُ أنْ يُخَلِّصَها! إنْ كانَ هو مَلِكَ إسرائيلَ فليَنزِلِ الآنَ عن الصَّليبِ فنؤمِنَ به!» (مَتَّى٢٧:٤٢)، ومن بعيد كانت بعض من تلميذات الرب وهن باكيات.

فكيف آمن واعترف؟

ماذا رأى هذا القائد حتى أنه اعترف هكذا آسفًا متأثرًا بأن المصلوب هو ابن الله وأنه بار؟ ويذكّرني هذا بما قيل عن اللص اليمين في القطعة الليتورجية التي نرتّلها في أسبوع الآلام (أمانة اللص): كيف آمن بالمسيح وهو في موقف ضعف من الخارج: «ما رأيتَ المسيح الإله متجليًا على طور طابور في مجد أبيه، بل رأيته معلقًا على الإقرانيون، فلوقتك صرخت قائلًا: اذكرني يا رب متى جئتَ في ملكوتك». ورغم أن اللص خاطب المسيح مُقدِّمًا له اعترافه وهو بعد مُعلَّق على الصليب، فإن القائد أعلن إيمانه بعد موت الرب، إلّا أن الله سمعه وقبله، وأعطاه لاحقًا الرتبة ذاتها «رتبة الشهداء».

لقد تابع محاكمة المسيح أمام بيلاطس، وكيف حاول بيلاطس مرارًا أن يبرّئه ويطلق سراحه، وشهد بيلاطس عنه أنه بارّ، وأنه لم يجد فيه عِلّة، وتساءل مستنكرًا: وأي شرّ صنع؟! كما رأى القائد نُبل المسيح وتهذُّبه وصموده واحتماله الفائق للألم. رأى القائد الشمس وقد اظلمّت، والأرض تزلزلت، والصخور تشقّقت، والقبور تفتّحت، فنطق قائلًا: «حَقًّا كَانَ هٰذَا ٱلْإِنْسَانُ ٱبْنَ اللهِ». (مرقس١٥:٣٩). لعلّه تذكّر أثناء المحاكمات كيف طُرِحَت المسألة هل هو ابن اللهِ. والآن بات مقتنعًا أن يسوع بارٌّ، وأنه بالفعل ابن الله.

كما أن صراخ المسيح قبل إسلامه الروح لا يجوز العبور عليه بسرعة، فقد كان الشخص المصلوب يُنهَك جدًا بسبب فقده كمية كبيرة من الدم والماء، كما أنه في حالة اليدين المُسمَّرتين يحاول الارتكاز على القدمين للتنفس، فلمّا يضعف قليلًا قليلًا يأتي الموت بسبب الاختناق، ومن ثَمّ فلا تكون هناك قدرة على الكلام، وبالأحرى على الصراخ، ومن ثَمّ فكيف يصرخ بصوت عظيم، ما لم يكن الأمر مختلفًا والمصلوب ليس بشرًا عاديًا، بل الإله المتجسد.

لم يَرَ قائد المئة عظمة كهذه، ولا قوة ونبلًا كهذا. لقد عاصر الكثير من المحكوم عليهم بالإعدام صلبًا ولم يكونوا هكذا، بل يصدر عنهم التجديف والشتم ومظاهر التمرد، ولكن المصلوب هنا يغفر لصالبيه ويلتمس لهم العذر! وربما تأثّر القائد بتوبة أحد اللصين، وقبول الرب له ومنحه الفردوس دون أن يتأفّف منه.. هكذا لم يكن المصلوب هذه المرة مثل كل المجرمين الذين أشرف قائد المئة على عملية إعدامهم، بسبب ما عاينه وما تابعه.

قائد المئة أمام بيلاطس من جديد:

مرة أخرى يتواجد قائد المئة أمام بيلاطس، في الأولى كان يتابع محاكمة المسيح، فرأى بيلاطس حائرًا ثم مغلوبًا على أمره، وقد أسلم يسوع لمشيئتهم، ومن ثَمّ أوكل لقائد المئة أمر تنفيذ الحكم. والآن يرى بيلاطس آسِفًا متأثرًا بموت المسيح سريعًا، وربما كانت نظرة الأسف والأسى والإشفاق في عينيه أغلى من نظرة الحيرة التي تنقّل بها ما بين اليهود والمسيح، وأظنّ أن بيلاطس قد لمح نظرة التأسُّف والتأثُّر في عيني قائد المئة وهو يبلّغه بموت ذلك الإنسان غير العادي، وعليه فقد أمر بأن يُعطى الجسد: «ولَمّا كانَ المساءُ، إذ كانَ الاِستِعدادُ، أيْ ما قَبلَ السَّبتِ، جاءَ يوسُفُ الّذي مِنَ الرّامَةِ، مُشيرٌ شَريفٌ، وكانَ هو أيضًا مُنتَظِرًا ملكوتَ اللهِ، فتجاسَرَ ودَخَلَ إلَى بيلاطُسَ وطَلَبَ جَسَدَ يَسوعَ. فتعَجَّبَ بيلاطُسُ أنَّهُ ماتَ كذا سريعًا. فدَعا قائدَ المِئَةِ

وسألهُ: «هل لـهُ زَمـانٌ قد مـاتَ؟». ولَمّـا عَـرَفَ مِنْ قائـدِ المِئَـةِ، وهَبَ الجَسَـدَ ليوسُـفَ» (مَرقُسَ ١٥:٤٢-٤٥).

وبينمـا نسـي بيلاطـس أمـر المصلـوب وأتباعـه ولـم يتابعهـم، واسـتمر فـي الحكـم بعدهـا لسـنوات حتـى ٣٧م (وربما تبع المسـيح فيما بعد)، فـإن قائد المئة لـم يمكـث إلّا قليـلًا حتـى تبـع المسـيح ومات حبًـا فيه.

إيمان اليهود وإيمان قائد المئة:

عندمـا وُلِـد المسـيح أعلنـت الملائكـة أنـه ابـن الله، كمـا اعترفـت الشـياطين فـي أكثـر مـن مناسـبة أنـه ابـن الله، واعتـرف بطرس الرسـول نيابة عـن جماعة التلاميـذ: «أنـتَ هـو المَسـيحُ ابـنُ اللهِ الحَـيّ!» (مَتَّـى ١٦:١٦)، والآب القدوس مـن السـماء أعلـن أكثـر مـن مـرة «هـذا هـو ابنـي الحبيـب»، كمـا أكّـد المسـيح لتلاميـذه فـي أكثـر مـن موضـع أنه ابن الله، هو نفسـه قَبِل لقـب «ابن الله» أثناء التحقيـق معـه مـن قِبَـل رئيـس الكهنـة (مرقـس١٤:٦١-٦٢)، الأمـر الـذي كان الدافـع لإدانتـه بالتجديـف والحكـم عليـه من ثَـمّ بالموت.

ويضـع القديـس متـى هنا مقارنة بين إنكار اليهود لألوهية المسـيح ومسـاواته لـلآب وقالـوا مسـتهزئين: «قـد اتَّـكلَ علَـى اللهِ، فليُنقِـذهُ الآنَ إنْ أرادَهُ! لأنَّـهُ قالَ: أنـا ابـنُ اللهِ!» (مَتَّـى٢٧:٤٣)، وإيمـان هـذا القائد الوثني به إلهًا. إنها اشـارة الى اسـتحقاق دخـول الأمـم إلى الإيمان مقارنة باليهـود «إلَى خاصَّتِهِ جاءَ، وخاصَّتُهُ لَـمْ تقبَلـهُ» (يوحَنـا١:١١)، وفـي المقابـل يقول الله: «شـعبٌ لم أعرفـه يتعبّد لـي» (مزمـور١٨:٤٣). نقـرأ فـي المقابـل أن قائـد المئـة مـع مجموعـة الجنـود الذيـن كانـوا يحرسـون يسـوع «وأمّـا قائـدُ المِئَـةِ والّذيـنَ معـهُ يَحرُسـونَ يَسـوعَ فلَمّـا رأوا الزَّلزَلَـةَ ومـا كانَ، خافـوا جِدًّا وقالوا: «حَقًّا كانَ هذا ابنَ اللهِ!».» (مَتَّـى٢٧:٥٤).

وهنـاك فـرق بيـن أن يُقـال «هـذا الإنسـان إلـه» أو «ابـن إلـه» أو «ابـن للآلهـة»، وأن يُقـال إنـه «ابـن الله» بالتحديـد والتعريف. فقد عـرف الرومان تأليه

الحاكم وعبادة الإمبراطور، ونسمع في التاريخ عن «بطليموس ثيؤس» أو «كليوباترا ثيا»، ولكن قائد المئة هنا يقول إنه ابن الله.

قالها بأسى وخجل.. مثل بعض الذين كانوا وقوفًا عند الصليب «وكُلُّ الجُموعِ الّذينَ كانوا مُجتَمِعينَ لهذا المَنظَرِ، لَمّا أبصَروا ما كانَ، رَجَعوا وهُم يَقرَعونَ صُدورَهُمْ» (لوقا ٢٣:٤٨)، ولكن لم ترد إشارة في الإنجيل عن اعترافهم بذلك.

ومن المُلفت أن قائد المئة لم يسئ ولم يسخر من السيد المسيح كما فعل الجند الذين راحوا يسلّون وقتهم بالسخرية منه والتقريع ليزيدوا آلامه الجسدية آلامًا نفسية، ولا حتى مثل اللص اليمين والذي جدّف وشتم قبل أن يتحول إلى الإيمان بالمسيح. إنه موقف هام ألّا يسخر أحد من المحكوم عليهم حتى لو كانوا مُستحَقين الحكم. هنا يظهر نُبل القاضي والحارس والشرطي ومأمور السجن وكتيبة الإعدام. والمبدأ أنه لا يليق بنا السخرية من شخص أصبح بين يدي العدالة، وبعد قليل بين يدي الله. وأعرف أن أغلب الضباط المنوط بهم تنفيذ أحكام الإعدام يسلكون بالشفقة واحترام هيبة الموت (أتذكر أن المسئول العراقي الذي كان يشرف على عملية إعدام صدام حسين، عندما سمع بعضًا من الواقفين يسخرون منه شامتين، انتهرهم قائلا: «لا يصحّ ذلك فالرجل في إعدام»).

المسيح ابن الله:

كانت دعوى (حيثيات) قتل المسيح عند اليهود ادعاؤه أنه ابن الله، وعند بيلاطس أنه ملك، فأمّن القائد على أن دعوى يسوع صحيحة، وهكذا رفضه اليهود وقبله هو...

المسيح هو ابن الله وهو الله: فهو الله، وهو الأقنوم الثاني للثالوث القدوس، وهو ابن الله المولود منه وله نفس طبيعته وجوهره ولاهوته، ونقول في

قانون الإيمان «إله حق من إله حق... مساوٍ للآب في الجوهر»، إنها بنوة أزلية وليس فيها فارق زمني كما يحدث في البنوة البشرية. وفي سؤال السيد المسيح للمولود أعمى: «أتؤمن بابن الله؟»، فأجاب «مَنْ هو يا سيد لأؤمن به؟»، فقال له: «قد رأيته، والذي يتكلم معك هو هو». فقال الرجل: «أؤمن يا سيد» وسجد له (يوحنا ٩:٣٥-٣٨).

وقد كانت بنوته لله سبب تقديمه للموت كما أشرنا، فقد قال له رئيس الكهنة: «أستَحلِفُكَ باللهِ الحَيّ أنْ تقولَ لنا: هل أنتَ المَسيحُ ابنُ اللهِ؟»، فقال له: «أنتَ قُلتَ!...»، حينئذ مزّق رئيس الكهنة ثيابه قائلًا: «قد جَدَّفَ! ما حاجَتُنا بَعدُ إلَى شُهودٍ؟...» (متى ٢٦:٥٩-٦٦). ولما أراد اليهود ذات مرة أن يرجموا السيد المسيح، سألهم عن السبب، قالوا: «لَسنا نَرجُمُكَ لأجلِ عَمَلٍ حَسَنٍ، بل لأجلِ تجديفٍ، فإنَّكَ وأنتَ إنسانٌ تجعَلُ نَفسَكَ إلهًا» (يوحنا ١٠:٣٣).

إذًا فالسيد المسيح هو الله بسبب جوهره الإلهي، فهو واحد مع الآب في الجوهر، وهو ابن الله بسبب أنه كلمة الله المولود من الآب قبل كل الدهور. هكذا آمن قائد المئة...

وهو الابن الوحيد: فقد سُمِّي «الابن الوحيد»، والمقصود أنه هو الوحيد أو الفريد في بنوته، والتي تختلف عن بنوة البشر لله، فالمسيح ابن الله بالطبيعة بينما نحن أبناؤه بالتبني، وهو ما قصده حين أرسل المجدلية لتبشر «اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ» (يوحنا ٢٠:١٧). ونؤكد في كل مرة أنه «الابن الوحيد الجنس» أي الفريد من نوعه، والذي لا يوجد له مثيل (اومونوجينيس)، وعن هذا ورد في إنجيل يوحنا: «اللهُ (الآب) لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. **الِابنُ الوَحيدُ** الّذي هو في حِضنِ الآبِ هو خَبَّرَ» (يوحَنا ١:١٨)، وكذلك: «لأنَّهُ هكذا أحَبَّ اللهُ العالَمَ حتَّى بَذَلَ **ابنَهُ الوَحيدَ**، لكَيْ لا يَهلِكَ كُلُّ مَنْ يؤمِنُ بهِ، بل تكونُ لهُ الحياةُ الأبديَّةُ» (يوحَنا ٣:١٦).

كان هذا الانسان بارًّا:

حين وصف قائد المائة المسيح بأنه «إنسان بار»، فقد قصد أنه كان بريئًا من جهة الاتهامات التي وُجِّهت إليه، ونتيجة لذلك فهو لا يستحق أن يموت ولا سيما بهذه الطريقة المهينة «فَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ مَا كَانَ، مَجَّدَ اللهَ قَائِلًا: «بِالْحَقِيقَةِ كَانَ هَذَا الإِنْسَانُ بَارًّا!»

لقد شهد آخرون ببرّه مثل يهوذا الذي اعترف بأنه أسلم دمًا بريئًا. وزوجة بيلاطس بروكولّا والتي أرسلت تحذّر زوجها «إيّاك وهذا البار». وبيلاطس نفسه اعترف أنه لم يجد فيه علّة واحدة، بل شهد قائلًا: «إنّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذا البارِّ!» (متى٢٧:٢٤). ثم اللص اليمين الذي بكّت زميله لأجل المسيح بأنه لم يفعل ما يستوجب هذا الحكم.

هذا الاعتراف –كما أشرنا– هو بمثابة انفتاح الإنجيل على الأمم، الذين كانوا على استعداد لقبول كرازة الكنيسة، بينما على النقيض –فيما عدا البعض منهم– أصرّ اليهود على ضلالهم، رافضين تمامًا المسيح.

يقول القديس يوحنا الذهبي الفم: «عظيم هو سلطان المصلوب، فبعد سخريات كثيرة وهزءٍ وتعييرات، تحرك قائد المائة نحو الندامة، وأيضًا الجموع». ويقول العلامة جيروم: «آخِرون صاروا أولين. الشعب الأممي اعترف، والشعب اليهودي الأعمى أنكر، فصار شرهم الأخير أقسى من الأول».

تاريخه اللاحق:

وبحسب التقليد فقد قام لونجينوس هو ونفر من الجند بحراسة القبر حسبما طلب اليهود من بيلاطس، وبالطبع فقد شاهده قائمًا من الموت، فآمن به بالحقيقة هو واثنان من الجنود، وأبى هو ومَن معه قبول الرشوة من اليهود، إنكارًا لحقيقة القيامة، حسبما ورد: «فاجتَمَعوا مع الشُّيوخِ، وتَشاوَروا، وأعطَوْا

العَسكَرَ فِضَّةً كثيرَةً... فأخَذوا الفِضَّةَ وفَعَلوا كما عَلَّموهُم، فشاعَ هذا القَوْلُ عِندَ اليَهودِ إلَى هذا اليومِ» (متى٢٨: ١٢-١٥).

قائد المئة مبشرًا:

ثم ذهب ومَن آمن معه الى بلاد كبادوكية، يبشرون بقيامة الرب وبأنه ابن الله (علّة إيمانه)، فأجرى الله على أيديهم عجائب كثيرة، فآمن كثيرون بالمسيح. وقد ظلّ اليهود يطاردونه حتى استصدروا أمرًا بقتله. فلما وصل إليه الجند لينفّذوا الأمر لم يعرفوه، فأكرم ضيافتهم ثلاثة أيام، ثم عرّفهم بنفسه أنه هو لونجينوس قائد المئة، فتأثروا جدًا وامتنعوا عن تنفيذ الأمر الذي بيدهم، أما هو فأبى إلّا أن يقوموا بواجبهم، وأمر خادمه أن يأتيه بثوب أبيض، لبسه عربون عرسه في السماء. واستدعى رفيقيه في الاستشهاد، فقطع الجند رؤوسهم، ففازوا بإكليل الشهادة نحو سنة ٤٥م (يذكّرنا ذلك بقصة استشهاد فوكا البستاني والذي أكرم الجنود الأربعة المُكلَّفين بالقبض عليه، فلما علموا رفضوا تسليمه للموت، وأمام إصراره آمنوا واُستُشهدوا معه).

««وأنا إنِ ارتَفَعتُ عن الأرضِ أجذِبُ إلَيَّ الجميعَ». قالَ هذا مُشيرًا إلَى أيَّةِ ميتَةٍ كانَ مُزمِعًا أنْ يَموتَ» (يوحَنا ١٢: ٣٢-٣٣).

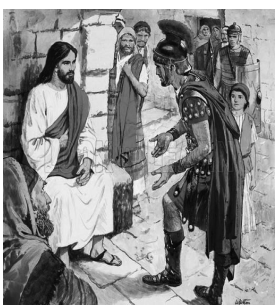

الشهيد لونجينوس

«فَأَتَى الْعَسْكَرُ وَكَسَرُوا سَاقَيِ الأَوَّلِ وَالآخَرِ الْمَصْلُوبِ مَعَهُ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَلَمَّا جَاءُوا إِلَيْهِ لَمْ يَكْسِرُوا سَاقَيْهِ، لأَنَّهُمْ رَأَوْهُ قَدْ مَاتَ. لَكِنَّ وَاحِدًا مِنَ الْعَسْكَرِ طَعَنَ جَنْبَهُ بِحَرْبَةٍ، وَلِلْوَقْتِ خَرَجَ دَمٌ وَمَاءٌ. وَالَّذِي عَايَنَ شَهِدَ، وَشَهَادَتُهُ حَقٌّ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ لِتُؤْمِنُوا أَنْتُمْ. لأَنَّ هَذَا كَانَ لِيَتِمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «عَظْمٌ لاَ يُكْسَرُ مِنْهُ». وَأَيْضًا يَقُولُ كِتَابٌ آخَرُ: «سَيَنْظُرُونَ إِلَى الَّذِي طَعَنُوه».» (يوحنا١٩: ٣٢-٣٧).

«وَأَمَّا قَائِدُ الْمِئَةِ وَالَّذِينَ مَعَهُ يَحْرُسُونَ يَسُوعَ فَلَمَّا رَأَوْا الزَّلْزَلَةَ وَمَا كَانَ، خَافُوا جِدًّا وَقَالُوا:»حَقًّا كَانَ هذَا ابْنَ اللهِ!».» (متى٢٧: ٥٤).

هو قائد المئة الذي قاد عملية الصلب، وهو أيضًا الجندي الذي طعن جنب السيد المسيح بعد أن أسلم السيد المسيح روحه، فتعجّب من ذلك، وزاد عجبه لمّا شاهد ظلام الشمس، وانشقاق حجاب الهيكل، وتشقُّق الصخور، وقيام الموتى من القبور.

ولما طلب اليهود منه ومعه رفاقه بأن يشهدوا أن تلاميذ المسيح أتوا وسرقوه وذلك مقابل رشوة كبيرة من المال، رفض هو وجنوده، وقد آمن ومعه بعض الجنود بالسيد المسيح على يد بطرس الرسول الذي شرح له النبوات وأكد له أن المصلوب ليس إلّا الله المتجسد، فتركوا الجندية وشهدوا في اليهودية كثيرًا بقيامة المسيح، ولما طاردهم اليهود تركوا فلسطين ومضوا إلى بلاد الكبادوك بلادهم حيث بشروا كثيرًا هناك، وعندئذ أقنع اليهود بيلاطس

بالقبض عليهم وقتلهم لئلا يبشروا بقيامة المسيح، لا سيّما وقد عاينوا كل ما جرى في الصلب والقيامة، فأرسل بيلاطس إلى طيباريوس القيصر الذي أمر بقتله مع من معه، وسعى جنوده في قتلهم، وفي طريقهم قابلوه ولم يعرفوه واستفسروا منه عن مكان وجود لونجينوس ورفاقه لأنهم مطلوبين لهروبهم من الجندية، وأمّا هو فأكرمهم كثيرًا وباتوا عنده (وهو الأمر الذي حدث مع فوكا البستاني)، وأمّا هو فقد توشّح بلباس أبيض وصلى طوال الليل، ثم تشاور مع رفيقيه وقرروا الإفصاح عن هويتهم لينالوا إكليل الشهادة، وفي الصباح صارح الثلاثة الجنود، فبُهِتوا من ذلك، ولما رأوا إصرارهم قتلوهم، وأرسلوا رأس لونجينوس إلى بيلاطس حسب طلبه ليرضي اليهود، والذين ألقوا بالرأس في مكان القمامة. أما جسده فدفنه بعض من رفاقه تحت تلّة قريبة من مكان استشهاده حسب وصيته.

وكانت هناك امرأة آمنت على يد القديس لمّا بشّر بالكبادوك، وقد عاينت استشهاده وهي واقفة تبكي، وقد أصيبت تلك السيدة بعد ذلك بالعمى، فأخذت ولدها وقصدوا أورشليم للتبرُّك من الآثار المقدسة والقبر المحيي لعلها تبصر، ولكن مات ابنها عند وصولهما المدينة، فحزنت وأفرطت في الحزن، وأثناء نومها ذات يوم أبصرت القديس لونجينوس ومعه ولدها الذي مات، فأرشدها إلى المكان الذي دُفِن فيه رأسه، وأمرها إن تحمله من هناك. فلما استيقظت بحثت عن المكان حتى وجدته، وحفرت في الأرض فخرجت رائحة بخور زكية، ولما بلغت إلى رأس القديس أبرق منه نور فانفتحت عيناها وأبصرت في الحال، فمجدت السيد المسيح وقبّلت الرأس وطيّبته ووضعته مع جسد ابنها.

وتوجد رفات القديس لونجينوس الآن فى كنيسة القديس أوغسطينوس في روما، ورمحه هو من ضمن الأربعة أعمدة فوق المذبح القديس بطرس فى روما. له تمثال، نحته المثال «جيوفاني برنيني Giovanni Bernini «مازال قائمًا في كنيسة القديس بطرس في روما.

ملاحظات حول لونجينوس:

١- **هو واحد من الذين عاينوا الصلب:** مثل اللصين وكتيبة الصلب، ولكن منهم من تأثر مثل اللص ولونجينوس، ومنهم من تقسّى مثل اللص الآخر واليهود والجنود، حتى الجنود أنفسهم لم يؤمنوا كلهم.. وهذا يذكّرني بمثل الزارع والذي فيه الزارع واحد والبذور واحدة وكذلك الموسم والمنطقة، ولكن استجابة الأرض لم تكن واحدة.

٢- **يمثل لونجينوس أهمية كبيرة في الكرازة لأنه عاين بنفسه وتحت إشرافه عملية الصلب.** وهو كذلك عاين تبعاتها مثل تأثّر الطبيعة، وكلمات المسيح، وموته بالفعل، وخروج الدم والماء من جنبه، وكذلك قيامته المقدسة، أي أنه لم يؤمن بالكرازة وإنما كشاهد عيان، مثل المريمات ويوحنا الحبيب وآخرين.

٣- **وهو كذلك رجل وثني، وليست لديه أيّة خلفيات يهودية،** ولكنه مثل يايروس والمرأة الكنعانية وقائد المئة الذي شفي الرب غلامه، ولكنه يبكت اليهود والمسيحيين معًا، عن مثله قال الرب: «الحَقَّ أقولُ لكُمْ: لَمْ أجِدْ ولا في إسرائيلَ إيمانًا بمِقدارِ هذا!» (متى ٨:١٠)، «شَعْبٌ لَمْ أَعْرِفْهُ يَتَعَبَّدُ لِي» (مزمور ١٨:٤٣).

ذكّرني ذلك بكثيرن تحولوا من الوثنية مباشرة إلى الرهبنة، مثل كاهن الوثن الذي قابله القديس مكاريوس في الطريق. والبعض الآخر من الوثنية إلى التبشير، وغيرهم... والحقيقة أن هؤلاء يشعرون بالنعمة والقوة التي لدينا أكثر مما نشعر بها نحن، ومن ثَمّ نجد علاقتهم بالكتاب المقدس والأسرار تفوق علاقتنا نحن، وهم اقتنوا الإيمان بمبلغ كبير، بينما نحن وُلِدنا فيه «فَأَجَابَ الأَمِيرُ: أَمَّا أَنَا فَبِمَبْلَغٍ كَبِيرٍ اقْتَنَيْتُ هذِهِ الرَّعَوِيَّةَ». فَقَالَ بُولُسُ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ وُلِدْتُ فِيهَا» (أعمال ٢٢:٢٨).

٤- **عجيب أن يكون أبناء هذا الجيل أحكم من أبناء النور في جيلهم،**

يرفضون الشهادة الزور ويرفضون الرشوة ويقبلون الموت إذا اقتضى الأمر، في حين يجبن البعض منّا، يساعدك بعض المسلمين ويجبن بعض المسيحيين!

٥- **كيف واجه الجنود وأكرمهم وهم الذين جاءوا ليقتلوه؟** إن الأمر يجب ألّا يمر مرور الكرام.. هل فرح بذلك؟ وما هي مشاعره تجاه من سيقتلونه؟ لقد كانوا يصلّون لأجلهم، وقد تسبّب رد الفعل هذا وهذه المشاعر في توبة الحكام والجلادين، ومن هنا دماء الشهداء بذار الإيمان.

٦- **كيف ننظر إلى مبغضينا والذين يسيئون الينا؟** من هنا كيف تنظر إلى مبغضيك وأعدائك؟ انظر لهم على أنهم مغلوبون من شرورهم، وأنهم يقعون تحت حرب، كذلك تفهّم إن لهم قناعات بما يفعلونه، وهم يحتاجون إلى الصلاة أكثر من الحقد أو الكره.. هذا تعليم الرب لنا.

٧- **سبق لونجينوس كثيرين في فترة وجيزة وهو الذي لم يعلّمه أحد:** هذا يعلّمنا ألّا نحتقر أحدًا وألّا نيأس من أحد. وكثيرون أولين يكونون آخرين، وآخرون يكونون أولين. ويمكن لشخص أن يحقق في ساعة واحدة ما لا يستطيع آخر أن يحققه في سنوات، إذا كانت نيّة الأول نشيطة ونيّة الآخر متوانية.

٨- **من المؤكد أن الجنود الذين قتلوه مع رفيقيه قد تابوا وربما أُستُشهدوا،** وقد عاينّا ذلك في قصص كثيرة مثل الجنود الذين أُستُشهدوا مع فوكا البستاني، والذين أُستُشهدوا في حوادث الاستشهاد وهم بالآلاف، وقد حُسِبوا شهداء دون معمودية واعتراف لأنها معمودية الدم، والمعمودية تغفر الخطية الجدية والشخصية.

٩- **العناد ومحاولة إطفاء النور:** هكذا حاول اليهودر إسكات الحق والشهادة، وبدلًا من أن يتوبوا ويُنخَسوا في قلوبهم أصرّوا على العناد، وصدّقوا كذبهم، وحملوا دم المسيح عليهم وعلى أولادهم، وأعطوا القفا لا الوجه، وقد انتقم منهم الله نقمة قوية في خراب أورشليم بعد ٤٠ سنة.

ويغفر لنا خطايانا

من المُلفت أن تجعل الكنيسة خاتمة جميع المردات والصلوات هذه الطلبة: «ويغفر لنا خطايانا». يُصلي الكاهن، ويرد الشماس بعده ليختتم المرد: «ويغفر لنا خطايانا»، ويحثّ الشعب في النهاية على طلب مغفرة الخطايا. نطلب من أجل الهواء الصالح والماء والأمطار، والزروع والعشب، من أجل المرضى والمسافرين، ومن أجل مُقدِّمي القرابين، وعن الإكليروس بكل رتبهم... ولكن –ورغم أهمية كل ذلك– لأن الكنيسة معنية بجميع شرائح الناس وأعمارهم واهتماماتهم، إلّا أن الأهم هو أن نوجد نحن وهم أمام الله بدون خطية، أن نوجد كاملين، فإن جميع الطلبات تخص الحياة هنا، ولكن ما يهمنا هو أن نتأهّل للحياة الأبدية.

وفي نهاية كل هيتنية من الهيتنيات نلحّ في مغفرة الخطايا، فنقول بصلوات (صاحب الهيتنية) يا رب اغفر لنا خطايانا: «بشفاعات والدة الإله القديسة مريم، يا رب أنعم لنا بمغفرة خطايانا»، وهذا الجزء تحوّل إلى لحن يقوله الشعب في نهاية صلاة الصلح. كذلك في نهاية كل ربع من أرباع المجمع في التسبحة نطلب غفران خطايانا بصلوات من ذكرناه: «اطلب من الرب عنا يا أبانا القديس (...) ليغفر لنا خطايانا»، بل هناك مردّ مستقل في القداس الغريغوري بعنوان: «حل واغفر واصفح لنا يا الله عن سيئاتنا... الخ».

وعند مرور الكاهن بالبخور في وسط الشعب، يردّد كل شخص سرًا: «أسألك يا سيدي يسوع المسيح أن تغفر لي خطاياي التي أعرفها والتي ما أعرفها». وبعد انتهاء الكاهن من المرور بين الشعب وعند عودته إلى الهيكل، يصلي صلاة تُسمّى «سرّ الرجعة»، يقول فيها: «يا الله الذي قبل إليه اعتراف اللص على الصليب، اقبل إليك اعترافات شعبك واغفر لهم خطاياهم من أجل اسمك القدوس».

الطلبـة الممتـدة على مـدار العام: هذه الطلبـة تلازم جميع المناسبات وفي جميـع الكنائـس التقليديـة، وعلـى مـدار العام لا يتوقف التوسُّـل إلى الله ليغفر لنا خطايانـا، حتـى فـي أيـام الفرح وليالـي الأعياد، حتـى الفائق العظمـة منها كعيد القيامـة، وفـي جميـع الأسـرار بمـا فيها سـر الزيجة، وفي التدشـين والرسـامات، تمامًـا مثلمـا نردّدهـا بوفـرة فـي أسـبوع الآلام. ومثلما نداوم على هـذه الطلبة فإن الله قـد «أدام لنـا الرحمـة»، هكـذا يرد في سـفر إرميا «ومَحَبَّةً أبديَّـةً أحبَبتُكِ، مِنْ أجـلِ ذلـكَ أدَمتُ لكِ الرَّحمَـةَ» (إرميا ٣١:٣).

إن لنـا اهتمامـات عديـدة منهـا الـزواج وتربيـة الأولاد والعمل، وحتـى الخدمة فـي الكنيسـة والتكريـس وغيرهـا، ولكن المهم في النهاية هـو أبديتنا، إن ما يعنينا سـواءً أكنّـا آبـاءً أو أبنـاءً أو رعـاةً أو رعية.. هو غفران خطايانا.

ومـن شـروط المغفـرة التوبة: إن غفران الخطايا لا يمكـن ان يكون بلا توبة واعتـراف، ومـن ثَـمّ لا يكفيـه مـردّ في التسـبحة أو القـداس «إنِ اعتَرَفنا بخطايانا فهـو أميـنٌ وعـادِلٌ، حتَّـى يَغفِـرَ لنـا خطايانـا ويُطَهِّرَنـا مِـنْ كُلِّ إثـمٍ» (يوحَنـا الأولَـى ١:٩). وأمّـا الإلحـاح فـي طلـب المغفرة فيعنـي أنهـا لـن تُغفَـر إلّا مـن خـلال الله، وأن الغفران هـو عطيـة مـن الله «الرَّبُّ طَويلُ الرّوحِ كثيرُ الإحسـانِ، يَغفِـرُ الذَّنـبَ والسَّـيِّئَةَ» (عَـدَد ١٤:١٨)، «وَفِـي زَمَانِ الْبُؤْسِ يَغْفِـرُ الْخَطَايَا لِلَّذِينَ يَدْعُونَـهُ» (طوبيـا ٣:١٣)، «فَـإِنَّ الـرَّبَّ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، يَغْفِـرُ الْخَطَايَا وَيُخَلِّصُ فِي يَوْمِ الضِّيقِ» (سـيراخ ٢:١٣) وباعتراف اليهود المناهضين: «مَنْ يَقدِرُ أنْ يَغفِرَ خطايـا إلّا اللهُ وحـدَهُ؟» (مَرقُس ٢:٧).

ومـن شـروطه الغفـران للآخريـن: «اغفِـروا يُغفَـرْ لكُـمْ» (لوقـا ٦:٣٧).. أن نغفـر نحـن للمذنبيـن إلينـا، كمـا نقول في الصـلاة الربية. ويقول الـرب: «وإنْ لَمْ تغفِـروا أنتُـمْ لا يَغفِـرْ أبوكُمُ الّذي في السماواتِ أيضًـا زَلّاتِكُمْ» (مَرقُسَ ١١:٢٦)، «فإنَّـهُ إنْ غَفَرتُـمْ للنّـاسِ زَلّاتِهِـمْ، يَغفِرْ لكُمْ أيضًـا أبوكُمُ السماويُّ» (مَتَّى ٦:١٤).

كما قال في لوقا ٦: «فكونوا رُحَماءَ كما أنَّ أباكُمْ أيضًا رحيمٌ... اِغفِروا يُغفَرْ لكُمْ» (لوقا٦:٣٦-٣٧)، ويقول القديس يعقوب: «لأنَّ الحُكمَ هو بلا رَحمَةٍ لمَنْ لَمْ يَعمَلْ رَحمَةً، والرَّحمَةُ تفتَخِرُ علَى الحُكمِ» (يعقوب٢:١٣)، وهو ما نردّده في صلاة نصف الليل: «لأنه ليس هناك رحمة لمن لا يستعمل الرحمة»، وأتذكّر ذلك الأخ الذي شكا لأبيه من أخ آخر، ولما طلب منه الأب أن يسامحه رفض، وقبل مغادرته وقف الأب ليصلي، وعندما جاء إلى العبارة: «واغفر لنا...»، قال بصوت واضح: «ولا تغفر لنا ذنوبنا كما لم نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا»، ولمّا احتجّ الأخ، قال الأب: «بل هكذا يُقال وهكذا يكون».. ونحن في الواقع نغفر القليل للآخرين مقابل الكثير الذي يغفره لنا الله، فنحن إذًا الكاسبون. «ومَتَى وقَفتُمْ تُصَلّونَ، فاغفِروا إنْ كانَ لكُمْ علَى أحَدٍ شَيءٌ، لكَيْ يَغفِرَ لكُمْ أيضًا أبوكُمُ الّذي في السماواتِ زَلّاتِكُمْ» (مَرَ ١١:٢٥). وأنا أتعجب كيف يُصرّ شخص وهو يحتضر على عدم الغفران لآخر!

«سأل أخٌ شيخًا: «كيف أخلص؟»، فقال له الشيخُ: «هو ذا أنا مُصوّرٌ لك دِينِ اللهِ، وأريك إياه: أنت تقول ارحمني، فيقول لك ارحم أخاك وأنا أرحمك؛ وإن قلتَ له اغفر لي، يقول لك اغفر لأخيك وأن أغفرَ لك؛ ألست ترى أن العلّةَ هي مِنّا؟».» والقديس بولس يقول: «وكونوا لُطَفاءَ بَعضُكُمْ نَحوَ بَعضٍ، شَفوقينَ، مُتَسامِحينَ كما سامَحَكُمُ اللهُ أيضًا في المَسيحِ» (أفَسُسَ٤:٣٢).

الغفران ثقافة: وأتذكر أن العبارة التي اعتاد الآباء استخدامها عند بداية الكلام أو السؤال في أمر ما او الاعتذار، وكذلك عند الإذن بالانصراف هي: «اغفر لي». يقول الأنبا انطونيوس: «عوِّد لسانَك القولَ في كلِّ شيءٍ وفي كلِّ وقتٍ ولكلِّ أخٍ ولله تعالى: اغفر لي، فيأتيك الاتضاعُ»، وقال أحدُ الشيوخِ: «إذا قال الراهبُ لصاحبهِ: اغفر لي، باتضاعٍ، تحترق الشياطين». «قيل عن راهبٍ إنه إذا شُتم فكان يجري نحو شاتمه ويقول له: «اغفر لي».»

وعند حلول الوقت لانتقال أحدهم من هذا العالم، كان يقول لكل من يقابله أو يعرفه: «اغفر لي إن كنتُ قد أسأتُ إليك»، وأخبرني أحد الآباء أنه تعلم أن يقول قبل نومه: «اغفر لي يا رب ما قد أكون قد أسأتُ به إلى أحد، واغفر للآخرين إساءاتهم لي، وأنا قد سامحتهم من أجل اسمك القدوس».

وقد تحول هذا السلوك إلى ثقافة، فتعوّد الناس على القول: معذرة، لا مؤاخذة (أو ماتآخذنيش)، excuse me، أو pardon.. ولعلنا نلاحظ ذلك في حديث أبينا إبراهيم مع الله، فقد كان يبدأ جولات الحوار مع الله بعبارات شبيهة، مثل: حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر... إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد... لا يسخط المولى فأتكلم... (تكوين١٨:٢٣-٣٣)، إنها طريقة مُهذّبة في الحديث.

فماذا إذا لم يغفر الله؟ إذا حدث ذلك تبقى الخطية ونموت في خطايانا! «قالَ لهُمْ يَسوعُ: لو كنتُم عُميانًا لَما كانتْ لكُمْ خَطيَّةٌ. ولكن الآنَ تقولونَ إنَّنا نُبصِرُ، فخَطيَّتُكُمْ باقيَةٌ» (يوحنا٩:٤١)، «فقُلتُ لكُمْ: إنَّكُمْ تموتونَ في خطاياكُمْ، لأنَّكُمْ إنْ لَمْ تؤمِنوا أنّي أنا هو تموتونَ في خطاياكُمْ» (يوحنا٨:٢٤). والخطية تستوجب الدينونة، لأن أجرة الخطية هي موت (رومية٦:٢٣).. لذلك بعد المعمودية نتوب ونعترف باستمرار، لنتنقّى أولًا بأول من خطايانا الإرادية أو اليومية. فإذا اعترف شخص دون توبة فهود يعود من جديد للخطية، لأنه لم يقتلع جذورها. وإذا تاب ولم يعترف فخطيته باقية «أعتَرِفُ لكَ بخَطيَّتي ولا أكتُمُ إثمي. قُلتُ: «أعتَرِفُ للرَّبِّ بذَنبي» وأنتَ رَفَعتَ أثامَ خَطيَّتي. سِلاهْ» (المَزاميرُ ٣٢ :٥).

ولعل أعظم ما يمكن أن يسمعه إنسان في حياته هو عبارة: «الله يحالك (من خطاياك)»، فإن الخطية هي رباط، والذين يتوبون ويعترفون «يتحلّون»

من رباطات الخطية «حِلّ عنّي رباطات الخطية» (ابصالية الأحد الثانية). ومن بين معاني رباطات الخطية، أنها تمنع نمونا وانطلاقنا نحو الله، ولا سيما الخطايا الصعبة التي يُذَلّ لها الإنسان ويُستعبَد. وفي الطرح الذي نقرأه ليلة الأحد في كيهك، بعنوان «مراحمك يا إلهي» نقول: «حلّ عنّا كل وثاقات الخطية، وكل الشكوك والكبرياء».

والغفران هو الشفاء من الخطية: يقول داود النبي: «الّذي يَغفِرُ جميعَ ذُنوبِكِ. الّذي يَشفي كُلَّ أمراضِكِ» (المَزاميرُ ١٠٣:٣)، فالغفران هو أيضًا تطهير وغسل من وسخ الخطية: «تغسلني كثيرًا من إثمي، ومن خطيتي تطهرني... تنضح عليّ بزوفاك فأطهر» (المزمور الخمسون)، وفي إشارة لذلك في القديم يقول الرب: «وأرُشُّ علَيكُمْ ماءً طاهِرًا فتُطَهَّرونَ. مِنْ كُلِّ نَجاسَتِكُمْ ومِنْ كُلِّ أصنامِكُمْ أُطَهِّرُكُمْ» (حِزقيال٣٦:٢٥). وما فعله الرب بصليبه هو أنه طهّرنا، يقول القديس بولس: «بَعدَ ما صَنَعَ بنَفسِهِ تطهيرًا لخطايانا، جَلَسَ في يَمينِ العَظَمَةِ في الأعالي» (العِبرانيّينَ١:٣)، ويقول القديس بطرس: «لأنَّ الّذي ليس عِندَهُ هذِهِ، هو أعمَى قَصيرُ البَصَرِ، قد نَسيَ تطهيرَ خطاياهُ السّالِفَةِ» (بُطرُسَ الثّانيَةُ١:٩). ليس غسلًا أو تطهيرًا فقط، وإنما «تغسيل» أي غسل كثير وعدّة مرّات: «الّذي أحَبَّنا، وقَدْ غَسَّلَنا مِنْ خطايانا بدَمِهِ» (رؤيا١:٥)، «والآنَ لماذا تتَوانَى؟ قُمْ واعتَمِدْ واغسِلْ خطاياكَ داعيًا باسمِ الرَّبِّ» (أعمالُ الرُّسُلِ٢٢:١٦). وعندما قال داود النبي: «تغسلني كثيرًا ومن إثمي، ومن خطيتي تطهرني» كان يقصد إنني أحتاج إلى غسل قوي، وتكرار الغسل لمرات لأنني أميل إلى الخطية وقد أسقط من جديد، كما يقصد بالغسل عدم إهلاكي، بل الاحتفاظ بي مع غسلي مرات.

الغفران والإفخارستيا: ولا يكتمل الغفران بعد التوبة والاعتراف إلّا بالإفخارستيا «جسدي الذي يُكسَر عنكم.. ودمي الذي للعهد الجديد.. يُعطى

لمغفرة الخطايا.. هذا اصنعوه لذكري». ويقول الكاهن في نهاية القداس: «يُعطى عنّا خلاصًا وغفرانًا للخطايا وحياة أبدية لمن يتناول منه». إن الإفخارستيا هي «ختم الغفران ومكافأته».

كيرياليسون

وفي كل مرة نطلب فيها غفران الخطايا، نعقبها بالقول وبقلب منسحق «يا رب ارحم». وكيرياليسون ⲕⲉⲣⲓⲉ ⲉⲗⲉⲏⲥⲟⲛ (يا رب ارحم) هى الكلمة التي تصهر الشعب معًا في الليتورجيا. وكلما قدّم الكاهن طلبة إلى الله عن الشعب، هتف الشعب بمسكنة إليه ليرحمهم. وإذا جاوب الشماس بطلبة، أمّن الشعب في الخارج على طلبة الشماس! هكذا تُختتَم جميع الطبات والتشكُّرات بالتوسُّل القلبي: «يا رب إرحم». وتتردّد هذه الطلبة في القداس الإلهي حوالي سبعين مرة. كما تزخر صلوات بقية الأسرار والمناسبات الكنسية الأخرى بمئات من هذه الطلبة. وفي يوم الجمعة العظيمة نختم أسبوع الآلام بابتهالات مع سجدات كثيرة تصل إلى الخَمسمئة مع الطلبة: كيرياليسون، مستمطرين مراحم الرب الذي تألم عنا..

وفي صلاة الأجبية يُلاحظ أن الكاهن يكرر في بدايتها: «ⲡ̀ⲟ̅ⲥ̅ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ.. ⲡ̀ⲟ̅ⲥ̅ ⲛⲁⲓ ⲛⲁⲛ ابشويس ناي نان – ابشويس ناي نان»، والسبب في هذا التكرار ببساطة: أن السيد المسيح قال «ليس كُلُّ مَنْ يقولُ لي: يا رَبُّ، يا رَبُّ! يَدخُلُ ملكوتَ السماواتِ» (مَتَّى ٧:٢١)، ولذلك يقول الكاهن «يا رب ارحم – يا رب ارحم»، أي: سنخلص ليس لمجرد ترديد اسمك ولكن بطلب الرحمة، فندخل الملكوت على أساس رحمة الله لا على أساس مجرد التبعية..

وفي صلاة القسمة يظهر بوضوح هذا التفاعل مع الكاهن من قِبَل الشعب، فبينما يصلي الكاهن القسمة – بطريقة شجية مؤثرة – وهو يقسّم الجسد، يجاوبه الشعب: «كيرياليسون» بطريقة «البكاء»!! فالشعب الواعي

يعرف ما يدور فيبكي معتذرًا.. إذ أن خطاياه هي التي جعلت المسيح يكابد كل هذه الآلام.

وقد اتخذت الكنيسة وضع العشار خلال القداس كله مستعطفة ومسترحمة، يبدأ ذلك الأب الكاهن حين يأتي مبكرًا خالعًا نعليه وكاشفًا رأسه (بلا أي مجد) ويقف بمسكنة بجوار باب الهيكل، مثل الذي أضاع النهار وجاء متوسِّلًا أن يحسبه المسيح ضمن أصحاب الساعة الحادية عشرة، ويبدأ بطلب الرحمة «ⲉⲗⲉⲏⲥⲟⲛ ⲏⲙⲁⲥ إيليسون إيماس.. ارحمنا يا الله الآب...». هكذا تأتي الكنيسة كلها إلى أمام عرش الله (مذبحه) مثل المديون الذي جاء ليطلب الرحمة والإعفاء من الدين.. فتحصل على الغفران، بل وعلى عربون الحياة الأبدية، فالقداس كله عبارة عن رحلة توبة.. تُكلَّل بالغفران والفرح.. فلنصرخ مستدرّين الرحمة، قائلين: كيرياليسون...

الله يستجيب: فماذا بعد أن يسمع الله كل هذه التنهُّدات والطلب المتواتر للرحمة؟ إنه بالطبع يستجيب «أنا الرَّبَّ أستَجيبُ لهُمْ. أنا إلهَ إسرائيلَ لا أترُكُهُمْ» (إشَعياءَ ٤١:١٧)، «ويكونُ في ذلكَ اليومِ أنّي أستَجيبُ، يقولُ الرَّبُّ» (هوشَع٢:٢١)، «يَدعوني فأستَجيبُ لهُ» (المَزاميرُ ٩١:١٥)، فالله «يُريدُ أنَّ جميعَ النّاسِ يَخلُصونَ» (تيموثاوس الأولى٢:٤) و«لا يشاء موت الخاطئ مثل أن يرجع ويحيا».. وفي الصلاة على المتنيحين نقول: «لأنك لم تخلق الإنسان للهلاك بل للحياة».

وفي النهاية هو القائل بفمه الطاهر: «مَنْ يُقبِلْ إلَيَّ لا أُخرِجهُ خارِجًا» (يوحَنا٦:٣٧).

«طوبَى للّذينَ غُفِرَتْ آثامُهُمْ وسُتِرَتْ خطاياهُمْ. طوبَى للرَّجُلِ الّذي لا يَحسِبُ لهُ الرَّبُّ خَطيَّةً» (رومية ٤:٧-٨).

لحن القيامة

«المسيح قام من بين الأموات، بالموت داس الموت، والذين في القبور، أنعم عليهم بالحياة الأبدية».

هذه الكلمات الخالدة والتي تحولت إلى لحن القيامة الشهير في جميع الكنائس، وظهرت في الكنيسة منذ وقت مبكر إذ نجدها في عظات لآباء الكنيسة مثل القديس كيرلس الإسكندرى في رسالته الفصحية الأولى التي كُتِبت عام ٤١٤م، كما وُجِدت أيضًا في العظة الرابعة عشرة للقديس كيرلس الأورشليمي في القرن الرابع الميلادي. وهذا يعني أن نصّ لحن «خريستوس آنيستي» كان من الألحان التي كانت ترتّل بها الجماعات المسيحية الأولى وهي تعيّد بقيامة الرب من بين الأموات.

وكلمات اللحن مُقتبَسة من رسائل القديس بولس الرسول: «ولكن الآنَ قد قامَ المَسيحُ مِنَ الأمواتِ وصارَ باكورةَ الرّاقِدينَ... أين شَوْكَتُكَ يا موتُ؟ أين غَلَبَتُكِ يا هاويَةُ؟» (١كورنثوس ٢٠:١٥،٥٥)، «وَإِنَّمَا أُظْهِرَتِ الآنَ بِظُهُورِ مُخَلِّصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، الَّذِي أَبْطَلَ الْمَوْتَ وَأَنَارَ الْحَيَاةَ وَالْخُلُودَ بِوَاسِطَةِ الإِنْجِيلِ» (٢تيموثاوس ١٠:١)، ومن هوشع النبي «مِنْ يَدِ الهاويَةِ أفديهِمْ. مِنَ الموتِ أُخَلِّصُهُمْ. أين أوباؤُكَ يا موتُ؟ أين شَوْكَتُكِ يا هاويَةُ؟ تختَفي النَّدامَةُ عن عَينَيَّ» (هوشع ١٤:١٣)، حيث كانت الجماعات المسيحية الأولى تستخدم المزامير وبعض نصوص من العهد القديم والجديد فى صلواتها الليتورجية.

واللحن له طرق كثيرة في جميع اللغات وبألحان شتى، ونحن نقوله باللحنين القبطي واليوناني، بينما يقابله في الطقس القبطي لحن «بي اخرستوس افتونف Ⲡⲭ̅ⲥ̅ ⲁϥⲧⲱⲛϥ».

المسيح قام:

المسيح قام... التحية الدائمة

هتاف النصرة والتحية التلقائية، والحقيقة الثابتة الحاسمة، عبارة لها بريقها وقوتها، لها طعم النصرة، مشيعة الفرح، سبب الرجاء، ومصدر القوة، ونازعة الخوف، وخاتم الفداء، صادمة للشيطان، حلًا لمعضلة الموت، مرادفة للحياة، مفجعة المتآمرين، الشرارة التي أضرمت المسكونة، عربون قيامتنا إنها العبارة والحقيقة التي تحولت إلى اللحن الخالد:

خرستوس انستي آليثوس آنستي...

لإنه الخبر الذي تردّد صداه في العالم كله..

من بين الأموات:

مات المسيح بدلًا من آدم ليهبه الحياة، لم يغب فترة من الزمن ليعود ويعلن للتلاميذ والرؤساء والعامة: أنه مات وقام، بل أن موته كان بشهود كثيرين وسيناريو مؤلم للغاية هكذا كانت قيامته، لأنه تم في الفصح وكما رغب اليهود في ألّا يقبضوا عليه في الفصح لئلا يكون شغب في الشعب، فإذا بالصلب يتم في الفصح ليكون شهوده بمئات الآلاف. ونحن لم ندّعِ هذه الأيام أنه مات، وإنما هي الحقيقة التي تسلمناها من الكتاب والآباء والتقليد والتاريخ والآثار، وأنه دُفن في قبر جديد مثلما وُلِد من بطن لم تلد قبله ولا بعده، والقبر ما يزال يشهد بذلك، وكذلك اللفائف والمنديل والكفن، وصار باكورة الراقدين، وتعبير «من بين الاموات» لا يعني أنه كان هناك موتى آخرون، كلّا! وإنما يقصد أنه قام من عالم الأموات.

البعض ينكر أنه مات بالفعل، ولكن شُبِّه لهم، ولكنه افتراء مردود عليه، إذ ما هو الداعي لهذه التمثيلية الساذجة؟! وما الذي يضطره إلى ذلك؟!

بالموت داس الموت:

دخل المسيح إلى عرين الموت وهزمه في عقر داره، وكان قد استبق الآلام والقبر بأن اقتحم الموت في سبت لعازر، حين أقام الميت وله أربعة أيام في القبر، والموت الذي كان آخر عدو يُبطَل أصبح يمكن التفاهم فيه وغلبته. لقد كان الناس مستعدين لدفع كل ما يملكون لعلاج مريض، ولكن ما أن يموت حتى يستدّ كل فم، لدرجة أن كلمة الموت أصبحت تعني انتهاء الأمر وغلق الملف ووضع اليد على الفم، وكانت تبعث على اليأس والقهر، ولكن المسيح أخرج لنا حياة من الموت، بل أصبح القبر شاهدًا للقيامة.

بالموت داس الموت:

لقد قدّم لنا المسيح شيطانًا مهزومًا بعد أن كان قد تسلط على الإنسان، وعالمًا مغلوبًا «ثقوا، أنا قد غلبت العالم»، وخطية يمكن الانتصار عليها فلا تسود الخطية «فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ، لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ» (رومية ٦:١٤)، وأثبت أن الأمراض ممكن الشفاء منها، وهكذا الموت أشهره مغلوبًا، وصار المسيحيون لا يهابون الموت بل يفرحون به، يذهبون إليه، والشهداء الذين كانوا يندفعون بقوة نحو الموت كانت القيامة هي المحرّك الرئيسي لهم في ذلك، بل سخروا من الموت، بل صار هناك ما يُسمّى بـ»عطية الموت»، لقد سمح المسيح للموت أن يبتلعه وبالتالي كان الموت ينتحر! لقد كان المسيح مثل النور الذي أشرق في الظلمة فبدّدها.

الذين في القبور أنعم عليهم بالحياة الأبدية:

عند موت المسيح يوم الجمعة، الأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتّحت، وقام كثير من الراقدين ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين، وبالطبع بقوا في قبورهم حتى قام المسيح لأنه باكورة الراقدين، ثم قاموا هم بعده. وحدث ذلك في المدينة المقدسة لأنها المدينة التي جرت فيها المحاكمات

وصلب الرب وقبره، ومن ثَمّ ظهروا لمن تابعوا هذه الأحداث ليثبتوا أن الهدف من مجيء الرب كان الفداء وتخليص الراقدين، وأن هذه القيامة عربون القيامة الثانية في الملكوت، وأن الموت ليس نهاية المطاف.

من هنا جاء هذا الطقس المُفرح أن ندور في موكب النصرة ومعنا أيقونات جميع القديسين لا سيمّا قديسي العهد القديم في سبت النور، لأنه خلصهم وأنقذهم إذ نزل إلى الجحيم ليلة الجمعة وسبى سبيًا...

والحياة الأبدية هي الحياة التي نكون فيها في حضرة الله، ننسى الزمن، ولا يمكن أن ننشغل بشيء سوى الله. إنها أعظم مكافأة، ولم يكن ممكنًا الفوز بها إلا إذا خلصنا المسيح وبموته وأبطل عزّ الموت وجعل الحياة تنير لنا..

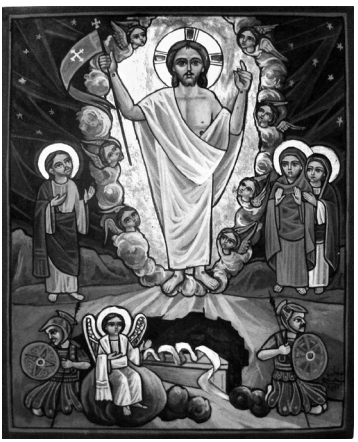

كيفَ نعيّدُ عيدًا روحانيًا؟

عيـد: تأتـي كلمـة عيـد في العبرية مـن عاد وموعـد ومواعيد ومنهـا «العيد». وهنـاك قسم خـاص مـن الأقسـام السـتة للتلمـود ويُسـمّى سـيداريم أولهـا أحـكام الأعيـاد «قسـم أو سـيدير موئيـد أي مواعيـد أو أعيـاد». وقـد حـدّد الله مواعيـد الاحتفـال بتواريـخ ثابتـة. ودون الدخـول فـي صـراع العيـد ومواعيـده، فـإن بنـي إسـرائيل عيّـدوا الفصـح علـى مـدار تاريخهم فـي نفس الموعد رغم الشـتات الذي اسـتمر مئـات السـنين. ونقـرأ فـي سـفر المكابييـن أن يهـود أورشـليم كانـوا علـى تواصـل مـع يهـود مصـر ليعيّدوا معهم في نفـس التوقيت (٢مكابيين ١، ٢). وفي أيـام المسـيح عيّـدوا الفصـح في التوقيـت ذاته.

تأتـي كلمـة عيـد فـي اللغـة القبطيـة «شـاي ϣⲁⲓ» والتي تعني أيضًـا أشـرق، وفي عيد الميلاد أشـرق المسـيح على عالمنا وأضاء المسـكونة بميلاده العجيب، فقـد وصـل إلـى أرضنـا ليرفـع أدم وبنيـه الذيـن أحدرتهـم الخطيـة إلـى أسـفل، وسـيختتم فتـرة تجسـده بالصعـود كسـابق لأجلنـا وحيـث سـيكون هو نكـون نحن أيضًـا لأنه سـيأتي ويأخذنـا إليه.

عيـدًا روحانيًـا: تقـول الشـارات الأولى في تذاكية السـبت: «لأجل هـذا نُعيّد نحن أيضًـا. عيدًا روحيًا. ونبويًا معًا – ⲉⲑⲃⲉ ⲫⲁⲓ ⲧⲉⲛⲉⲣϣⲁⲓ ϩⲱⲛ: ⲉⲛ ⲟⲩϣⲁⲓ ⲙ̀ⲡⲛⲉⲩⲙⲁⲧⲓⲕⲟⲛ: ⲟⲩⲟϩ ⲙ̀ⲡⲣⲟⲫⲏⲧⲓⲕⲟⲛ ⲉⲩⲥⲟⲡ». ونقـول فـي إبصالية أحـد الشـعانين: «يـا جميـع أجنـاس المؤمنيـن عيّـدوا ملائكيًـا بمزاميـر وتسـابيح وأغانـي روحيـة». وفـي طرح عيد شـهداء سبسـطية: «وعيَّـدوا عيـدًا روحانيًا مع سـيدنا ومخلصنـا المسـيح عوض الأتعـاب التي نالوها على اسـمه».

ولا شـك أن ناظمـو هـذه القطـع، كان يجـول فـي أذهانهـم مظاهـر الاحتفـال

بالأعياد، وقد اتخذت مع بعض الأشخاص وبعض البلاد مظهرًا يبعد بها عن جوهر العيد ومدلوله، فقد يتحول الإفطار إلى فرصة للجسد، فقد كان الاحتفال باستشهاد شخص ما، يتم بتأثر شديد وبكثير من الوقار والورع، ثم يتحول الأمر بمرور الوقت إلى ترتيب الموائد ودعوة المحبين وتزيين المكان وتوزيع الهدايا، ويتبدّل التعبير عن التوبة إلى التعبير عن الفرح، ثم يتحول الفرح الروحي إلى فرح علماني، شأنه في ذلك شأن بعض الأسرار الأخرى مثل الزواج والذي يتم الاحتفال به أحيانًا بشكل صاخب لا يتناسب مع قدسية السر، بل والمعمودية كذلك يتحول الاحتفال بطفل خرج للتوّ من المعمودية على صورة المسيح من البرنامج الروحي، إلى الاحتفال العرقي، وقد يزفون المولود باستخدام الطبل والمزمار! ناهيك عن مظاهر الاحتفالات في بعض موالد الشهداء والقديسين (يُقصد بالمولد تذكار ميلاده في السماء).

العيد بين الجوهر والمظهر: ولعل أحد أسباب ما وصل إليه بعض المسيحيين في الغرب، هو البُعد عن جوهر الأعياد ومدلولاتها اللاهوتية، ليتفرغ العيد من محتواه الروحي لحساب البُعد الشعبي، وهو ما حدث بالفعل مع اليهود الذين حوّلوا واحدة من أهم المناسبات لديهم وهو عيد التجديد إلى احتفال صاخب..

نعود الآن إلى الأعياد الثلاثة الكبرى: الميلاد والغطاس والقيامة، حيث ينشغل الكثير من الناس بالبُعد العالمي للعيد أكثر مما ينشغلون بجوهر العيد، حتى أنهم يخرجون قبل نهاية القداس لإعداد الطعام! وربما يعني العيد للبعض الأطعمة المحبوبة والملابس المناسبة والولائم العائلية والتزاور. وحسبما لفت أحدهم الانتباه إلى أن الأمر الأخير الذي يفكرون به في العيد، هو صاحب العيد نفسه، فشبّهها بحفل عيد ميلاد أحدهم واكتظّ المكان بالمدعوين الذين احتفى أحدهم بالآخر، وأكلوا وشربوا وتمتعوا، دون أن يحتفي أحدهم بصاحب العيد نفسه، رغم أن الاحتفال مُقام على شرفه.

ومما يلفت الانتباه أن الكثير من الناس يكونون أكثر روحانية وتقوى في الأصوام أكثر من الأعياد، ففي الصوم الكبير يحرصون على السلوك بوقار، فيذهبون إلى الكنائس وكتبهم في أيديهم ويتابعون القراءات بشكل جيد، وقد تمتد المرة الواحدة إلى ساعات طويلة، ولكنهم يستمرون بحماسة وفرح قلبي، ومثلها في كيهك حيث السهر حتى الصباح، وكذلك سهرات الاحتفال بالشهداء والقديسين، ولكنهم يتخفّفون أحيانًا من هذه التقوى في الأعياد، وأحيانًا يفقد البعض كل ما حصّله من مخزون في الصوم وذلك خلال الأيام الأولى من الإفطار، مثل فترة الخمسين والتي ننتقل فيها بالمفهوم الدارج من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، من نُسك وصوم وسجود وورع، إلى «اللا قانون»، ومن ثَمّ فنحن نحتاج إلى مراجعة مفهوم العيد والتعييد.

إن الأكل بنهم في الأعياد قد يعني أنك كنت صائمًا بصعوبة وعلى مضض، وأنك كنت تتحيّن الفرصة لتتحلّل منه.. ولكن ليكن الطعام بعفّة أيضًا، قال شيخ: «لا تقل: اليومَ عيدٌ، آكل وأشرب! فإن الرهبانَ ليس لهم عيدٌ على الأرضِ، وإنما فصحهم هو خروجهم من الشرِّ، وعنصرتهم تكميل وصايا المسيح، ومظالّهم حصولهم ملكوت السماوات».

كيف يحتفل الرهبان بالأعياد؟: وأتذكر أن بعض المتوحدين كانوا يلتزمون بقانونهم الروحي حتى في الخمسين المقدسة، فقد كانوا يكسرون الصوم بشيء يسير، ولكن موعد الطعام الأساسي لم يكن يتغير، كما أنه في التدبير الرهباني يجوز جدًا الصوم في أي وقت وكذلك عمل الميطانيات.

قيل إن أحدَ الرهبانِ كان يشتغلُ في عيدِ شهيد. فلما أبصره آخر هكذا، قال له: «أيجوز اليومَ العملُ»؟ فأجابه: «إن الشهيدَ فلان قد عُذِّب في هذا اليوم، وجُلِد وتجشّم أتعابًا كثيرةً حتى الموت، ألا ينبغي لي أن أتعبَ ولو قليلًا في عمل يدي».

ولكن عندما يلتفّ جميع أفراد الأسرة أو العائلة معًا ليلة العيد فهذا أمر جيد، وعندما يفكرون في جوهر العيد فهذا جيد، وأن يتبادلوا الهدايا هذا جيد أيضًا، وأن يحصل الصغار على العيدية جيد أيضًا.. أما أن يكون فرصة للتباري في ألوان الطعام والشراب على حساب جوهر العيد فهذا أمر غير مقبول، وإن اعتبرها البعض فرصة لتناول الخمر فهذا أمر سيئ، وإن تبارى البعض في عروض الثياب فهذا غير مقبول، وإن مضت الاحتفالات على هذا النحو فقد تم تفريغ العيد من محتواه الحقيقي.

وفي المنازل كانوا يرتلون ترانيم العيد حيث يكون لها مذاق خاص يختلف عنه بقية العام. وكما كنّا نلزم الكنيسة في الصلوات والأصوام، كنا نحضر العيد بذات الاهتمام.

الحرية في التدبير: مسموح بالإفطار وأنواع عدة من الأطعمة ولكنها ليست فرضًا، وقد تسلمنا من الآباء أنه يمكن للإنسان أن يحيا فوق مستوى القانون، فمن الجائز أن يصوم طوال العام وأن يمتنع كلية عن الدسم، فإن الله لم يحرّم في العهد الجديد أطعمة مُعينة، ومع ذلك لم يفرض طعامًا بعينه، ومع أنه سمح بأكل اللحوم إلّا أنه لم يفرضها، وبالتالي فلا عتاب على من يمتنع عنها، والاستثناء الوحيد الذي حدث كان في إطار محاربة بدعة ماني.

قال الأب برصنوفيوس: «فلا تطلب أن تكون تحت قانونٍ، لأني لستُ أريدك أن تكون تحت ناموسٍ بل تحت النعمةِ، لأنه مكتوب: «إن الناموسَ لم يوضع للقديسين». تمسَّك بالإفرازِ وكمثل نوتي حكيم دبّر سفينتَك مقابل الرياح، وبعد ذلك لا تبالِ، لأن الجسدَ إذا مرض لا يقبل الطعامَ كعادتهِ، وإذا كان الأمرُ هكذا فقد بَطُلَ القانونُ. أما عن الأيامِ فلتكن عندك كلّها متساويةً مقدسة، وكلُّ شيءٍ تفعلَه فليكن بفهمٍ، وجاهد لتقطع عنك الغضبَ، لأنه يحتاج إلى جهادٍ مع معونةِ اللهِ».

قال الأبَ سلوانس: «حدث مرةً أن أضافه إخوةٌ بديرٍ ومعه تلميذه زكريا، وجعلوهما يتغذيان قبل انصرافهما. وفي ذهابهما عطش التلميذُ، فلما وجد في الطريقِ ماءً ليشربَ، منعه الشيخُ قائلًا: «لم يأتِ وقتُ الإفطارِ بعد». فقال له التلميذُ: «ألم نأكل قبل انصرافنا يا أبي»؟ فقال له الشيخُ: «إنه لأجلِ المحبةِ أكلنا، والآن لا نحلُّ قانونَنا».»

.....

أعياد نستعد لها: من هنا كانت الكنيسة حاذقة جدًا في الترتيب والتمهيد لتلك الأعياد، وذلك بالأصوام والقداسات والقراءات والألحان والشروحات والطروحات، مع الميطانيات وجهادات كثيرة، وفي أعياد الظهور الإلهي (الميلاد والمجوس والختان والغطاس وقانا الجليل ودخول المسيح الهيكل) تستعد بسهرات طويلة تشرح الحدث بكافة تفاصيله وجوانبه. وفي عيد القيامة تستعد من خلال الصوم الكبير وصلوات وقراءات البصخة الطويلة والميطانيات الكثيرة.

تحقيق الوعد: وفي الأعياد نشعر بالامتنان أننا عشنا في العهد الجديد، فسعادتنا هي أننا صرنا مُطوَّبين، لأننا ننظر ونسمع ما اشتهى الأنبياء والأبرار أن يروه وأن يسمعوه فلم يروا ولم يسمعوا، ولم يكن نصيبهم سوى بعض النبوات والرموز والإشارات والرؤى، فرأوا المواعيد ولكن من بعيد: «أَرَاهُ وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ. أُبْصِرُهُ وَلكِنْ لَيْسَ قَرِيبًا» (عدد ٢٤:١٧)، وحيّوها ورقدوا على الرجاء الذي سلمه جيلٌ للجيل التالي.

كما أننا نتمتع بأن نقرأ ما كُتِب في العتيقة، ثم نسعد بتحقيقه في العهد الجديد، وليس أن نقرأه فقط، مشبهين في ذلك بالرجلين اللذين حملا عنقود العنب من أرض الموعد، فقد كان المتقدم لا يرى أمامه شيئًا بينما كان الذي تلاه يرى ما تقدم، وهكذا مثّل أحدهما العهد القديم بينما مثّل الآخر العهد

الجديد، هكذا ندرك النعمة التي نحن فيها مقيمون، فإنه بسبب طول الزمان ننسى الملابسات والخلفيات والمعاناة، ومن ثَمّ لا ندرك ما نحياة ومفاعيل الخلاص وثمر البر.

إن ما اشتهى الأولون معاينته ولم يقدروا، درسناه طوال الصوم، ثم البسخة المقدسة، إتمام الفداء، وأسبوع بعد الآخر تتصاعد وتيرة القراءات والشروحات، حتى نقترب من الحدث الأدق والأعظم (أي الصلب والقيامة) وذلك ساعة بساعة، حتى إذا ما احتفلنا بالقيامة كان لذلك وقع كبير يهز الأعماق رغم تكراره سنويًا (كما يحدث عند ظهور النور من القبر المقدس).

ففي فجر الأحد تكون الفرحة لا توصف بقيامة المسيح، وكأن الحدث يحدث لأول مرة، ومن هنا نجحت الكنيسة في أن تجعلنا نحيا الحدث، وليس مجرد عرضًا مسرحيًا نشاهده ونصفق له.

لقد كان الآباء يرقدون وهم يسلمون الرجاء لمن بعدهم: «فِي الإِيمَانِ مَاتَ هؤُلاَءِ أَجْمَعُونَ، وَهُمْ لَمْ يَنَالُوا الْمَوَاعِيدَ، بَلْ مِنْ بَعِيدٍ نَظَرُوهَا وَصَدَّقُوهَا وَحَيُّوهَا» (عبرانيين ١١:١٣) ولم يلحقوا سوى النبوات والإشارات والرموز والأحلام والرؤى والوعود من خلال رسالات الأنبياء، أما نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور فقد طوّبنا المسيح لأن عيوننا رأت وآذاننا سمعت، هذا يُعطي بُعدًا آخر عند الاحتفال بالأعياد.

ولعل ذلك يُعَد من الأسباب الرئيسية في ضعف المسيحيين في بعض البلاد، أي بعدهم عن الحدث الأساسي والاحتفال به جوهريًا، وليس شكليًا وماديًا، والذي من شأنه إضعاف معنى العيد وقيمته.

الأعياد وعمل الرحمة: ومن بين مظاهر العيد المفرحة، هو ارتباط الأعياد عند الأقباط والمصريين عامة، بالعطاء؛ فتكثر أعمال الرحمة على نطاق واسع، وتنشط الكنائس في هذه الخدمة، ويهرع الكثيرون من أفراد

الشعب إلى الكنائس بعطاياهم بفرح كثير، وقد سلمنا السيد المسيح ذلك، فعندما استنكر يهوذا سكب الطيب غالي الثمن يقول القديس يوحنا: «قَالَ هذَا لَيْسَ لأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِالْفُقَرَاءِ، بَلْ لأَنَّهُ كَانَ سَارِقًا، وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ، وَكَانَ يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ» (يوحنا ٦:١٢)، وفي العشاء الفصحي وبعد أن أعطاه اللقمة «فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ... وَأَمَّا هذَا فَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُتَّكِئِينَ لِمَاذَا كَلَّمَهُ بِهِ، لأَنَّ قَوْمًا، إِذْ كَانَ الصُّنْدُوقُ مَعَ يَهُوذَا، ظَنُّوا أَنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ: اشْتَرِ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْعِيدِ، أَوْ أَنْ يُعْطِيَ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ» (يوحنا١٣:٢٩).

وربما يعني ذلك أن الفرحة الحقيقية في العيد، هي أن نُسعد الآخرين ونُدخل البهجة على قلوبهم، فإن السعادة الحقيقية في أن تسعد الآخرين وتجد البهجة على وجوههم، وأنا أنصحكم بالتالي بأن تكثروا من هذه الأعمال قبل العيد حتى تحصلوا على السعادة الحقيقية، فالفرحة عندما تتوزّع على كثيرين تزداد، نلاحظ ذلك في حرص أفراد الشعب على تبادل توزيع الطعام والبسكوت والحلوى على جيرانهم ليصبح العيد أكثر بهجة، وعلى الجانب الآخر ينقص الحزن عندما يشارك فيه الكثيرون.

اقتسام الفرحة مع آخرين: هكذا فإن فرحة العيد تكتمل إذا افتقدنا البعض يوم العيد مثل الحزانى والأرامل والذين ليس لهم أحد يذكرهم، كأننا نقول لهم أننا لا يمكن أن نعيّد بدونهم، وأن الفرح لا يمكن أن يكتمل إلّا بهم.

كما أننا ندرك أن الفقراء لن يتسنّى لهم الفرح بالعيد وهم عرايا جائعين، وهو ما لفت إليه الانتباه القديس يعقوب: «مَا الْمَنْفَعَةُ يَا إِخْوَتِي إِنْ قَالَ أَحَدٌ إِنَّ لَهُ إِيمَانًا وَلكِنْ لَيْسَ لَهُ أَعْمَالٌ، هَلْ يَقْدِرُ الإِيمَانُ أَنْ يُخَلِّصَهُ؟ إِنْ كَانَ أَخٌ وَأُخْتٌ عُرْيَانَيْنِ وَمُعْتَازَيْنِ لِلْقُوتِ الْيَوْمِيِّ، فَقَالَ لَهُمَا أَحَدُكُمُ: امْضِيَا بِسَلاَمٍ، اسْتَدْفِئَا وَاشْبَعَا وَلكِنْ لَمْ تُعْطُوهُمَا حَاجَاتِ الْجَسَدِ، فَمَا الْمَنْفَعَةُ؟» (يعقوب٢:١٥،١٦).

وأتذكر هنا ما حدث مع المعلم إبراهيم الجوهري، فقد عاد بعد قداس عيد القيامة المجيد ليجد أنوار بيته مطفأة كلها، وإذ سأل زوجته عن السبب أجابته: «كيف نستطيع أن نبتهج بالنور، ونعّيد وقد حضرت عندي في المساء زوجة قبطي سجين هي وأولادها في حاجة إلى الكسوة والطعام؟! وقد ساعدني الله، فذهبت إلى زوجة المعلم فانوس الذي نجح في استصدار الأمر بإطلاق سراحه». فذهب المعلم إبراهيم وأحضر الرجل وزوجته وأولاده إلى بيته لكي يضيء الأنوار ويبتهج الكل بالعيد، أما ما هو أعجب فإن هذا السجين الذي أكرمه المعلم في بيته إذ قدم له عملًا، قال للمعلم بأن هناك صديق له هو أولى منه بهذه الوظيفة وأكثر منه احتياجًا، ففرح المعلم إبراهيم باتساع قلب هذا الرجل ومحبته، وقدم عملًا لصديقه.

ولنتخيل أن مسجونًا في زنزانة لسنين طويلة وكان اليأس قد تملك منه، ثم حصل على الإفراج، ترى ماذا تكون مشاعره أليس الامتنان لمن حرّره؟ أليس طعم الحرية أجمل من كل ملذات العالم؟ وهو ما حدث لسكان الجحيم حين زلزل المسيح أركانه وأخرجهم من هناك، وهو ما حدث بشكل تمهيدي في الميلاد حين أشرق على أرضنا.

القيامة والأسئلة الحتمية

بقيامة المسيح من الموت نلنا أعظم نعمة، وردّت القيامة على العديد من الأسئلة الحتمية التي عجز الناس عن حلها، وغيّرت وجه الحياة، وأثّرت إيجابيًا على سلوك الناس، واستخفّ الناس بالموت والشيطان وبأمور هذه الحياة، ولم تعد تلك الفكرة البائسة تسيطر على الناس «لنأكل ونشرب اليوم لأننا غدًا نموت»، أي أن ما بين أيدينا الآن هو كل ما نملكه وبعد ذلك القبر. وبينما تنال احتفالات الميلاد القدر الأكبر من الاهتمام بين الأعياد المسيحية قاطبة، وترتبط بالنور والبهجة والهدايا والطعام، فإن القيامة هي أعظم حدث في المسيحية، لأنه إن لم يكن المسيح قد قام فمن أين لنا أن نعرف أن الذي صُلِب ومات ودُفِن هو الإله المتجسد؟ وكيف نكرز بإله ميت لم يستطع أن يُقيم نفسه، حتى وإن كان قد أقام آخرين في حياته؟

١ – مشكلة الموت سلطته ولغزه: كان الناس يخشون الموت، وكان سيرته كريهة أكثر من رائحته، وكانت نهاية كل شيء هي الموت.. الآن صار الموت بداية وليس نهاية، منذ قامت ابنة يايروس وابن أرملة نايين ولعازر ولاحت بارقة أمل في كسر هيبة الموت، حيث اقتحم المسيح عرينه لا سيّما يوم سبت لعازر حيث كانت تلك المعجزة هي الدليل القاطع على ألوهية المسيح، واستخلص المسيح لعازر من الموت. ولكن الفرق بين قيامة لعازر وقيامة المسيح هو أن ما حدث مع لعازر وما حدث لاحقًا في تاريخ الكرازة من إقامة أموات كثيرين، نسميه إقامة من الموت، وأمّا ما حدث مع المسيح فهو قيامة من الموت، فقد أقام المسيح نفسه من الموت بقوة سلطان لاهوته، وما يعنينا في قيامة المسيح أنه قام لأجلنا وأقامنا معه «وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجْلَسَنَا مَعَهُ فِي السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ» (أفسس ٢:٦)، فقد صار المسيح هو باكورة الراقدين. وعندما صعد إلى الآب، قدّم له نفسه ابن الإنسان قائمًا من الموت كباكورة البشرية كلها «وَلكِنِ الآنَ قَدْ قَامَ الْمَسِيحُ مِنَ الأَمْوَاتِ وَصَارَ

بَاكُورَةَ الرَّاقِدِينَ» (١كورنثوس ١٥: ٢٠)، ومن ثَمّ فالمسيح وهو عن يمين الآب يجتذب إليه كل من ينتقل من هذه الحياة.

٢- **الخوف من الظلام من الموت من المستقبل:** كان الجحيم يستقبل الجميع: الأبرار والأشرار، وحقيقي لم يكن له سلطان على الأبرار ولكن الفداء لم يكن قد تم بعد، وقد لاحظنا ذلك من قصة الغني ولعازر إذ ذهب كلاهما إلى هناك، وتحدّث أحدهما إلى الآخر من هناك، وأبونا يعقوب يقول «فَقَامَ جَمِيعُ بَنِيهِ وَجَمِيعُ بَنَاتِهِ لِيُعَزُّوهُ، فَأَبَى أَنْ يَتَعَزَّى وَقَالَ: إِنِّي أَنْزِلُ إِلَى ابْنِي نَائِحًا إِلَى الْهَاوِيَةِ. وَبَكَى عَلَيْهِ أَبُوهُ» (تكوين ٣٧: ٣٥)، ويقول لأولاده »تنزلون شيبتي بحزن إلى الهاوية (الجحيم، الهاوية، شاؤول، هاديس، عالم الموتى السفلي)». وفي نبوة عن السيد المسيح يقول المزمور: «لأَنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ نَفْسِي فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ تَدَعَ قُدُّوسَكَ يَرَى فَسَادًا» (أعمال ٢: ٢٧)، «سَبَقَ فَرَأَى وَتَكَلَّمَ عَنْ قِيَامَةِ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ لَمْ تُتْرَكْ نَفْسُهُ فِي الْهَاوِيَةِ وَلاَ رَأَى جَسَدُهُ فَسَادًا» (أعمال ٢: ٣١).

٣- **الحياة الأبدية:** بالقيامة صار وضع الإنسان أفضل مما كان قبل السقوط، فقبل السقوط كان يحيا في جنة عدن، أما بعد الفداء ففي الفردوس كعربون للملكوت الدائم. مهما عاش الإنسان هنا حتى سني متوشالح (٩٦٩ سنة) فإنه مات أيضًا «فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ مَتُوشَالَحَ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعًا وَسِتِّينَ سَنَةً، وَمَاتَ» (تكوين ٥: ٢٧)، فنادرًا ما نقرأ عن الحياة الأبدية في العهد القديم «وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ، هؤُلاَءِ إِلَى الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ، وَهؤُلاَءِ إِلَى الْعَارِ لِلازْدِرَاءِ الأَبَدِيِّ» (دانيال ١٢: ٢). «عَدَدُ أَيَّامِ الإِنسانِ على الأَكثَرِ مِئَةُ سَنَة. كنُقطَةِ ماءٍ مِنَ البَحرِ وكذَرَّةٍ مِنَ الرَّمل، هٰكذا هي هٰذه السِّنونَ القَليلةُ أَمامَ الأَبَدِيَّة» (يشوع بن سيراخ ١٨: ٩-١٠)، «فابتغاء الحكمة يبلّغ إلى الملكوت» (الحكمة ٦: ٢١)، ولا سيمّا سفري دانيال وحكمة سليمان. ونقرأ عن أوصافها في حديث القديس بولس والقديس يوحنا (من خلال الرؤيا). عنها قال القديس بولس: «ما لم تره عين...»، أنه لم يستطع

أن يصفها من عظمتها.. أمّا يوحنا الحبيب فقد استخدم كل مبهر في حياتنا ليصف به أورشليم السمائية.

٤- **الظلم مهما طال أو ثقل سينتهي، والظالمون كذلك،** فلكل صليب قيامة، وبعد أحلك ساعات الظلمة يأتي النور، وبعد القبر القيامة، لن يطول ظُلم الظالمين. لقد شعر رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون بالراحة والنصرة والفخر حالما مات المسيح وقُبِر وتم ضبط القبر، ولكن المسيح قام ناقضًا أوجاع الموت إذ لم يكن ممكنًا أن يُمسَك منه، هكذا يجب أن يُدرك كل ظالم أنه سيُفتضَح، وليعلم كل مظلوم أنه سيظهر مثل النور حقه، «حِينَئِذٍ يَنْفَجِرُ مِثْلَ الصُّبْحِ نُورُكَ، وَتَنْبُتُ صِحَّتُكَ سَرِيعًا، وَيَسِيرُ بِرُّكَ أَمَامَكَ، وَمَجْدُ الرَّبِّ يَجْمَعُ سَاقَتَكَ» (إشعياء ٥٨:٨).

٥- **وطبيعة الحياة الأبدية:** عندما قام المسيح فقد قام بالجسد الذي سنحيا به في الملكوت، الجسد المُمجَّد أو جسد القيامة، وهو نفس هذا الجسد ولكنه زُرِع في فساد ويقوم بغير فساد، يُزرَع في هوان ويقوم في مجد، جسد لا يجوع ولا يعطش ولا يمرض ولا يتألم ولا يموت ولا يفنى. وما فعله المسيح بعد القيامة من أكل ولمس جسده فقد كان تدبيريًا ليؤكد أن الذي مات هو الذي قام وليس مجرد شبح أو خيال، ومن هنا ظهرت المسامير والحربة. وكما يقوم الجسد تقوم النفس ولا تفنى كما ادّعى البعض، وردّت عليهم الكنيسة بأن النفس لا تفنى والأجساد كذلك، وأمّا الروح فهي لا تموت أساسًا. هكذا كل من يموت يستريح من أتعابه ولا يعود من جديد ليمرض جسديًا أو يحزن نفسيًا.

هكذا فعلت بنا قيامة المسيح، والتي كانت الهدف من التجسد والفداء، لأنه: «وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَازَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيمَانُكُمْ... لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْمَوْتَى لاَ يَقُومُونَ، فَلاَ يَكُونُ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ. وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلٌ إِيمَانُكُمْ. أَنْتُمْ بَعْدُ فِي خَطَايَاكُمْ!» (١كورنثوس١٥).

القيامة وجهادنا اليومي

القيامة ليست حدثًا منفصلًا يخصّ المسيح وحده نمجده ونحيّيه عليه، ونحتفل به على نحو خاص منفصل لا علاقة لنا به، وإنما قام المسيح أولًا لأنه لم يكن ممكنًا أن يُمسَك من الموت، ووضع هذه النصرة رصيدًا نحيا به. ومثلما تجسد لأجلنا ومات على الصليب قام لأجلنا أيضًا، **ولكن ما هو نصيبنا نحن في قيامته وما تأثيرها على حياتنا؟**

١- القيامة هي العمود الفقري وحجر الزاوية في إيماننا المسيحي وكرازتنا، والقيامة أكّدت لنا أن الذي صُلِب وقام هو الإله المتجسد، وأن تعاليمه بالتالي هي تعاليم إلهية، وأنه ابن الله، ونحن قد صرنا مسيحيين بقيامته وليس بموته فقط، ومن ثَمّ فعندما أردنا أن نصبح مسيحيين فإننا نموت ونقوم معه في المعمودية.

٢- من ثَمّ نثق بأنفسنا ومسيحنا وتبعيتنا له، فمسيحي قائم وليس ميتا، حتى إن القَسَم القبطي التلقائي يحمل هذه العقيدة: «المسيح الحي» (مثلما تحمل الكثير من الأقسام بعدًا عقائديًا مثل: البيعة الطاهرة، وجسد المسيح الحي، وغيرها)، بل أصبحت التحية اليومية منذ القرن المسيحي الأول هي: «خريستوس آنستي آليثوس آنستي».

٣- كلما صادفنا ضيقًا أو حزنًا أو ظلمًا نتذكر القيامة، والتي بدّدت الظلام، فقد جاء النور بعد ظلمة القبر، وبعد الليل الطويل أتى الفجر، والذين كانوا حرّاسًا صاروا شهودًا على البراءة والنصرة. هكذا الذين يظلموننا ويسيئون إلينا يعودون فيشهدون لنا. وقد تعلّمنا فيما تعلّمناه من الصلب والقيامة ألّا ندافع عن أنفسنا، وألّا نجبن كذلك قدام الحق، حتى ولو كلّفنا ذلك حياتنا..

فهناك قيامة. هكذا فعل المسيح وهكذا فعل الشهداء المسيحيون قبل وبعد المسيح: «أَخَذَتْ نِساءٌ أمواتَهُنَّ بقيامَةٍ. وآخَرونَ عُذِّبوا ولَمْ يَقبَلوا النَّجاةَ لكَيْ يَنالوا قيامَةً أفضَلَ» (عبرانيين ١١:٣٥).

٤- تُعلمنا أنه عندما ننتصر وتُعلَن براءتنا، ويُرَّد علينا ما فُقِد أكثر مما كان، مثلما حدث مع ايوب الصديق وأيوب الحقيقي. علينا ألّا نهتم بإعلان ذلك على الملأ، بل باتضاع نخبر في أضيق دائرة؛ فقد حوكم المسيح وصُلِب أمام جمهور كثير، بل وتحدّثت البشائر كثيرًا عن آلامه، في حين ظهر بعد قيامته لأعداد محدودة أكثرها خمسمائة أخ. الناس عادة يسترون عيوبهم ولكنهم يعلنون نجاحاتهم وأحيانًا أشباه النجاحات، هكذا علينا التعقل في الفرح، أو التعبير برزانة عن النصرة والنجاح.

٥- تعلمنا ألّا ندافع عن أنفسنا، والله سوف يعلن براءتنا ويدافع عنا ونحن صامتون، هكذا سلك المسيح مع رؤساء الكهنة ومع السنهدريم ومع بيلاطس البنطي والذي كان عازمًا على إطلاق سراحه، حتى أنه قال له صراحة أنه بيده ذلك: «فقالَ لهُ بيلاطُسُ: أما تُكلِّمُني؟ ألَستَ تعلَمُ أنَّ لي سُلطانًا أنْ أصلِبَكَ وسُلطانًا أنْ أُطلِقَكَ؟» (يوحنا١٩: ١٠).

٦- أن نقوم مع المسيح من قبر الخطية والشهوة. هناك تقليد قديم تصوّره الأيقونات يصوِّر المسيح نازلًا إلى الجحيم وأيدي كثيرة ممتدة إليه بشوق وتضرُّع ولهفة لينتشلها منه. وإن كنا قد قمنا مع المسيح فلنطلب ما هو فوق حيث المسيح جالس، أي لنترفّع عن الأرضيات إذ صار لنا وطن سماوي أفضل كثيرًا، فقد مضى يسوع بعد قيامته وأعدّ لنا مكانًا ليأتي في الوقت المُحدَّد ليأخذنا إليه، وحيث يكون هو نكون نحن أيضًا.

٧- من ثَمّ صرنا نستخفّ بالموت ولا نجزع له، مثلما كان الناس يرتعبون قديمًا من ذكر الموت وعند دفن الميت، ولكننا وعندما نودّع أحد

أحباءنا نودعه على ذلك الرجاء، أن له قيامة أفضل من رغبتنا في نجاته من الموت الآن. وصارت تحية التعزية هي: «خريستوس آنستي». يقول القديس بولس: «إِنْ كانَ لنا في هذِهِ الحياةِ فقط رَجاءٌ في المَسيحِ، فإِنَّنا أشقَى جميعِ النّاسِ. ولكن الآنَ قد قامَ المَسيحُ مِنَ الأمواتِ وصارَ باكورَةَ الرّاقِدينَ. فإِنَّهُ إذ الموتُ بإنسانٍ، بإنسانٍ أيضًا قيامَةُ الأمواتِ. لأَنَّهُ كما في آدَمَ يَموتُ الجميعُ، هكذا في المَسيحِ سيُحيا الجميعُ» (١كورنثوس١٥:١٩-٢٢). قيامة السيد المسيح هي عربون قيامتنا نحن من الأموات في اليوم الأخير.

٨- **منذ أحداث الصلب والقيامة أصبحنا تابعين للسماء**، وكأنه لم يكن لنا بيت قبل ذلك، وأمّا الآن فإننا نملك معه «فإِنَّ سيرَتَنا نَحنُ هي في السماواتِ، الّتي مِنها أيضًا نَنتَظِرُ مُخَلِّصًا هو الرَّبُّ يَسوعُ المَسيحُ، الّذي سيُغَيِّرُ شَكلَ جَسَدِ تواضُعِنا ليكونَ علَى صورَةِ جَسَدِ مَجدِهِ، بحَسَبِ عَمَلِ استِطاعَتِهِ أنْ يُخضِعَ لنَفسِهِ كُلَّ شَيءٍ» (فيلبي٣:٢٠،٢١).

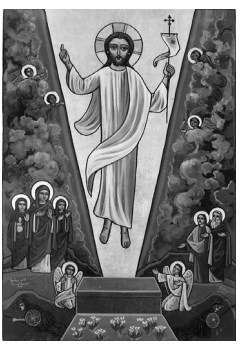

الفهرس

دراما الصليب الجزء الأول

صفحة

مقدمة ٧

أسبوع الآلام. كيف نستعد وكيف نسلك فيه ٩

علية صهيون ١٦

جثسيماني ٢٣

قيافا رئيس الكهنة ٣٦

مجلس السنهدريم ٤٤

يهوذا الاسخريوطي ٥١

دار الولاية ٦٥

بيلاطس البنطي ٧٠

بروكولا ٨٣

باراباس ٨٨

إكليل الشوك ٩٣

جند الرومان ١٠٠

خشبة الصليب المقدسة ١١٢

آثار أخرى نفيسة تتعلق بصلب السيد المسيح ١١٩

قميص السيد المسيح ١٢٨

سمعان القيرواني ١٣٤

الجلجثة ١٣٨

يوسف الرامي ١٤٨

نيقوديموس ١٥٨

الفهرس

دراما الصلب الجزء الثانى

صفحة

مقدمة ٧
أسبوع البصخة ٩
سبت لعازر ١٨
هكذا أحب الله العالم ٢٢
الشعانين والصليب ٢٨
أتان وجحش ابن أتان الرب محتاج إليهما ٣٠
يسوع يبكي أورشليم – مرثية أورشليم ٣٥
خراب أورشليم ٤٠
التينة والرياء ٦٣
ألحان أسبوع الآلام ٦٨
حجَر الزاويَا ٧٣
شجرة الحياة ٧٧
آلام الرب يسوع النفسية ٨٤
شق الثياب.. ماذا يعنى ٩٤
لغتك تظهرك ٩٩
يسوع الشاب النبيل ١٠٥
دم هذا البار ١١٠
بنات أورشليم ١١٥
ڤيرونيكا ١٢٠
اللافتة (عِلّة صَلب المسيح) ١٢٤
الخل والمر ١٣٢
حقيقة صلب المسيح ١٣٧
القبر المقدس ١٤٨
المسيح قاهر الموت ١٥٧
والقبور تفتحت ١٦٣
سبت الفرح ١٦٧
ملاحظات جديرة بالتسجيل ١٧٣

الفهرس

دراما الصليب الجزء الثالث

صفحة

مقدمة ٧

آلام المسيح وآلامنا ٩

إن كنا نتألم معه.. فلكي نتمجد معه أيضًا ١٤

التبعيات المرفوضة ١٨

السعف والأغصان والشعانين ٢٥

الصيارفة في الهيكل ٣٠

تطهير الهيكل ٣٥

لا يُترَكُ ههنا حَجَرٌ علَى حَجَرٍ لا يُنقَضُ! ٤١

أربعاء أيوب ٤٦

من هو الأعظم؟ ٥٠

يَارَبُّ هُوَذَا هُنَا سَيْفَانِ ٥٤

ملخص (عبد رئيس الكهنة) ٥٨

صياح الديك وإنكار بطرس ٦٣

صياح الديك في حياتنا ٧٢

اللص الشمال ٨٢

انشق حجاب الهيكل ٨٩

المسيح ومراثي أرميا ٩٣

رشم علامة الصليب ١٠٢

مريم المجدلية ١١٠

لماذا رفض اليهود السيد المسيح؟ ١١٨

ماذا نتعلم من هذه الأيام؟ ١٢٤

القيامة والإفخارستيا ١٢٨

الفهرس

دراما الصلب الجزء الرابع

بيلاطس البنطي

صفحة

مقدمة الطبعة الثانية ٧

مقدمة لنيافة الأنبا بنيامين ٩

الباب الأول: من الحرس الإمبراطوري إلى ولاية يهودية ١١

الباب الثاني: بيلاطس في اليهودية (إنجازاته – خلافاته مع اليهود) ٢٥

الباب الثالث: بيلاطس والمسيح – بيلاطس (يقف) أمام المسيح) ٥٩

الباب الرابع: بيلاطس في الأبوكريفا والفن والمخطوطات ٨٩

المراجع: ١١٩

الفهرس

دراما الصليب الجزء الخامس

صفحة

مقدمة الكتاب ٥

لماذا نحتفِل بالأعيَاد ٦

عَقيدة الفِدَاء ٩

عَلىَ مشارف الصّليب: السّلاَم المَلكيّ ١٩

خِتَام الصوم ٢٢

المسيح وَهيرودس ٢٥

ليسَ نبىّ بِلاَ كرامة إلاّ في وَطنه ٢٩

اِذهَب عَنيّ يا شَيطان ٣٤

نفسي قَد اِضربَت ٣٧

طوُبَى لذلِك العَبد ٤١

الطِيب وَاكرام القِديسين ٥٠

قَارُورة الطِيب "١" ٥٢

قَارُورة الطِيب "٢" ٦١

الفِصح ٦٣

خشَبَة الصّليب ٧٣

يَوم الكفَّارة ٧٩

كلمَات السَيّد المسيح عَلى الصَّليب (عَطاءُ بِلاّ حدود) ٨٩

مَأسَاة رَصفة ٩٨

نَتألّم وَنقوم مَعهُ ١٠٦

نزلَ إلىَ الجحيم مِنْ قِبَل الصّليب ١١١

ما بَين الصّليب وَالقيَامَة ١١٩

خرَج غالبًا لِكى يغلب "الغَالِب" ١٢٤

القِيَامَة وَالفِدَاء ١٢٦

الخماسين المقدسَة وَالتعقل في الحزن وَالفرح ١٣٠

اِتبعني أنتَ.. ..... ١٣٢

الفهرس

دراما الصليب الجزء السادس

صفحة

مقدمة الكتاب ٥
الفتيلة المدخنة والقصبة المرضوضة ٦
ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه ١٣
مَنْ يُهلك نفسه مِن أجلي يَجدهَا ٢٠
مَنْ هوَ الأعظم ٢٣
حجر الزاوية ٢٦
طوبَى لِذلك العبد ٣٠
لاَ أعرفك ٣٨
تعالوا إليّ.. ابعدوا عني ٤٣
يسوع المسيح وَالمسيئون إليه ٤٧
خطيَة الخيَانة ٥١
الأشرار في حياتنا ٥٦
ملاك من السّماء يقويه ٦٣
ذبح إسحق ٦٧
طوُبَى لعيُونكم لأنهَا تبصر ٧٤
تبعيَّة المسيح وحمل الصليب ٧٩
وَأحصى مَع أثمَة ٨٧
نحن بعَدل جوزينا ٩٣
سَينظرون إلىَ الذي طعنوه ٩٦
حقًا كان هَذا الإنسان ابن الله ١٠١
الشهيد لونجينوس ١١١
ويغفر لنا خطايانا ١١٥
لحن القيامَة ١٢٢
كيفَ نعيّد عيدًا روحانيًا؟ ١٢٦
القيَامَة وَالأسئلة الحتميّة ١٣٤
القيَامَة وَجهَادنا اليومي ١٣٧

المسيح قام.. بالحقيقة قام

المسيح قام... التحية الدائمة، هتاف النصرة، والتحية التلقائية، والحقيقة الثابتة الحاسمة. عبارة لها بريقها وقوتها، لها طعم النصرة، مُشيعة الفرح، سبب الرجاء، ومصدرٍ القوة، ونازعة الخوف، وخاتم الفداء، صادمة للشيطان، حلاً لمعضلة الموت، مرادفة للحياة، مفجعة المتآمرين، الشرارة التي أضرمت المسكونة، عربون قيامتنا. إنها العبارة والحقيقة التي تحولت إلى اللحن الخالد: «خرستوس آنستي آليثوس آنستي...»